كنت

على

أحارب

البقاء

كنت أحارب على البقاء

تأليف: أحمد شحتة

غلاف: ريم حسين

تدقيق: هبة ممدوح

تنسيق: مريم محمد سيد

الطبعة: الأولى

المقاس: 14 x 20

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٥١٤٦

الترقيم الدولي: 978-977-6954-68-7

بالتعاون مع دار المصرية السودانية الإماراتية

المدير العام:

حسن محمد حسن



الناشر: دار الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

المقر: الاسكندرية - صلاح الدين ش ٨ الهدى

رقم الهاتف: 01066476589

فيسبوك: https://www.facebook.com/Wriiiter/

البريد الإلكتروني: elketabategmna@gmail.com

كنت أحارب على البقاء

أحمد شحتة

رسالتي إلى:-

من حملتني ببطنها تسعة شهوراً وظلت تحارب من أجلي في الحياة، أنتي الشخص ألاعظم وألاكثر إلهاماً في العالم بالنسبه إلي. لم أجد أحدا يحبني ويهتم لأموري مثلك، فمنذ صغري وكنتي تبحثي عن كل تفاصيلي وألاشياء التي أحبها لكي تحققيها، قد صبرتي وتحملتي الكثير من أجلنا، وقد خوضتي المعركه لوحدك بدون زوج يعينك علي خوضها، لو كان العالم في كفة يد وأنتي في كفة يد فسوف أختار كفتك وأنا مغمي العينين فلا أحد يتنازع علي حبك بقلبي في العالم بأكمله، أحبك يا فؤاد قلبي وأعز وأثمن أملاكي علي هذه ألارض

~ احبك يا أمي~

***

إهداء إلي:-

من تملكت قلبي وعقلي من أول لقاء بيننا، الفتاة التي لم أجد شعوراً يصف حبي وإخلاصي لها، فهي التي أعانتني علي أخذ تلك الخطوة العظيمة في حياتي، حبيبتي العزيزة دومتي ألاجمل وألارقي وألافضل إلي قلبي، إتمني من الله أن تبقي بجانبي طوال العمر.

***

إهداء إلي:-

السلطان الشخص الذي كان بمثابة أب وأخ وصديق بالنسبه إلي، أحب الناس علي هذه ألارض لقلبي، لم أنسي لك كل ما فعلته من أجلي يا صديقي.

***

إهداء إلي:-

إخواتي الذين داموا سند لي في الحياة..

إلي أختي الكبيره والتي كانت امٌ ثانية لي، أحبك كثيرا يا أنقي القلوب وأطيبها علي هذه ألارض.

إلي أختي الصغيره التي دائما تقف بجانبي، أحبك يا صديقتي فوالله من بعد أن ذهبتي ألي بيت زوجك وقد ساء البيت من دونك.

***

مقدمة

اسمي وجدي أبو المجد، طبيبٌ نفسيّ، ولدتُ عامَ ١٩٨٥ في قرية «خربة نما» بمركز أبو حماد بمحافظة الشرقية. درست حتى نهاية الثانوية في القرية، ثم انتقلتُ لدراسة الطب في جامعة القاهرة؛ حيث كان انتقالي إلى القاهرة له تأثيرٌ كبيرٌ على عقلي وتفكيري.

تفكيرُ النَّاسِ في القُرى يختلفُ تمامًا عن المدن، حتى المواعيد؛ ففي قريتي ننام في تمام الساعة الثامنة مساءً، ونستيقظ في السابعة صباحًا للعمل في الأراضي. أما في القاهرة فننام -تقريبًا- الساعة الخامسة فجرًا، ونستيقظ في الواحدة ظهرًا، ثم تبدأ شوارع القاهرة بالامتلاء، والناس التي كلما نظرت إليها لا أجد لها أولًا من آخر، والازدحام المروري والكافيهات والمطاعم المملوءة بالأصدقاء والمرتبطين، والبهجة التي لم أجد شعورًا يصفها. وعلى الرغم من ذلك فأنا غير مبالٍ بهذه الأعداد الكبيرة؛ لأنني أعيش طوال حياتي في هدوء، فحياةُ القرى يغلب عليها الانعزال والهدوء،

وكل شخصٍ هناك لا يتدخل في حياة الآخر، ولا في مشاكله الخاصة.

أما عن انتقالي إلى القاهرة فكان له أثرٌ كبيرٌ في حياتي، وعلى طريقتي الخاصة في التفكير، ولكن عندما فكرت أن أفتتح عيادتي قررت أن تكون في القرية، وكانت هذه الخطوة من أصعب الأشياء في بدايتها؛ حيث إن حياة القرويين غير القاهريين؛ فهم لا يفصحون عن حياتهم ولا مشاكلهم، ولكن حدثتني نفسي قائلة: «إنها خطوة مختلفة وجريئة، ومن المؤكد أن الناس هناك في حاجة إلى شخصٍ مثلي، ينفثون عما في صدورهم معه»، وأرى أن ذلك بسبب الوحدة القاتلة التي يعيشون فيها.

«الفصل الأول»

اليوم الأول في العيادة، لم يأتِ أحدٌ إلا بعض أصدقائي وأهلي ليهنئوني على هذه الخطوة، ولكنني كنت أتقبل ذلك؛ وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات التي واجهتها، كانت هذه الخطوة صعبة جدًا في القرية، لكنني سعيدٌ؛ لأنني قمت بالمجازفة في شيء أحبه، ومع أشخاص تشبهني.

أنا أدرك أن تقبل الفكرة سيأخذ فترة كبيرة، ولكنني لم أيأس لوجود ثقة كبيرة بداخلي.

إن الناس في القرى يحتاجون إلى من يتحدثون له ويعبرون عن مشاعرهم معه، وأنا واحدٌ من الناس عشت حياة مأساوية؛ فكان التفكك الأسري له أثر كبيرٌ عليّ منذ الصغر؛ حيث انفصل والدي عن والدتي وأنا في العاشرة من عمري، كنت أرى أنني أحتاج إلى أن أعبر وأحكي عن كل شيء يدور بداخلي، ولكنني لم أجد من يواسيني أثناء وجعي، ورأيت كم من شابٍ وشابةٍ عاشوا حياة مأساوية بسبب هذا التفكك الذي كان له أثر كبير على إخوتي؛ خاصة البنات منهم؛ ولأن السيدات دائمًا تكون مشاعرهن هشة ورقيقة وتتأثر بأقل التفاصيل، فعلى الرغم من ذلك يظل الرجل يكتم ويموت كل يوم ولا يفصح لأحد عن أيِّ شيء، وأكبر دليلٌ

على ذلك؛ كنت أرى أخي الأصغر مني جالسًا يبكي وينظر إلى الصور التي جمعت أمي وأبي أثناء زواجهما، فعندما كنت أرى كان قلبي ينتفض ويثور من كثرة الوجع، وإضافة على ذلك شعور عجزي بأنني -وللأسف- لست قادرًا على حل هذه المشكلة. إحساس صعب جدًا وأنت تتمنى أن يكون لك أسرة مترابطة، وأم وأب يعتنيان بك وبمشاكلك، ولكن لا اعتراض على أمر الله -عز وجل- ؛ فالله رزقنا بأم قامت بدور الأب والأم في نفس الوقت. منذ صغري وأنا أرى كم تعبت وأُرهِقت معنا كثيرًا! وكم كانت تموت كل يومٍ من أجلنا! فكانت أمي هي العالم بالنسبة إلينا، فقد خاضت الكثير من المعارك في حياتها من أجل الحفاظ على أسرتنا، فلم تستمتع بحياتها من أجلنا، ومرت بالكثير من الأزمات في حياتها الزوجية، ولكنها صبرت كثيرًا. حقًا.. كم أنتِ عظيمة يا أمي!

«الفصل الثاني»

اليوم استيقظت وأنا في تمام الراحة والهدوء، وكأن النهار له سحرٌ خاصٌ؛ فهو ممزوجٌ برائحةٍ العطر الجميلة، وسبب ذلك أنني حققت الخطوة التي كنت أتمناها منذ زمن. شعور جميل عندما تحقق ولو هدفًا واحدًا من أهدافك في الحياة.

ارتديت الجاكت الأسود الأنيق على القميص الأبيض والبنطال الأسود على الحذاء الأسود اللامع، ونظرت إلى نفسي في المرآة وقلت: «إيه الشياكة دي يا واد يا وجدي»! ثم ذهبت إلى العيادة، وكانت المفاجأة أنني وجدت فتاة تنتظرني في ساحة الانتظار، ابتسمت قليلًا ثم ذهبت إلى مكتبي، وناديت على «محمد»؛ الشاب الطيب، ابن بلدي، الذي يعمل معي بكل حب قبل أن يعمل من أجل المال..

قلت له:

- أحضر لي فنجان قهوة، ثم اسمح للفتاة الجالسة في الخارج بالدخول.

كنت سعيدًا لأن شخصًا قام بأخذ الخطوة وجاء ليعبر عن مشاعره.

دخلت، ثم قالت:

- السلام عليكم.

قلت:

- وعليكم السلام، اسم حضرتك؟

قالت:

- سلمى العطار.

قلت:

- كم سنة؟

رددت:

- ثلاثون عامًا؛ متزوجة وعندي طفلان.

ثم سألتها السؤال البديهي:

- ما الذي جعلك تأتين إلى هنا؟

- كنت مترددة كثيرًا قبل أن آتي إلى هنا، فقد طفح بي الكيل، ولم أجد شخصًا أقصُّ عليه ما يدور بداخلي، سوف تهلكني الفوضى التي أعيش فيها، فلقد صبرت كثيرًا، ولكنني أصبحت غير قادرة على التحمل.

أوقفتها عن الحديث وقلت لها:

- استرخي يا سلمى وقصي عليَّ بكل هدوءٍ عن المشكلة التي أودت بكِ إلى هذا الحال.

- لقد قام أهلي بإجباري على الزواج وأنا في سن العشرين، وكنت في ذلك الوقت غير مهيأة لذلك؛ لوجود شخص آخر في حياتي،

كنت أحبه كثيرًا، ولكنك تدرك يا دكتور أنني لو ذهبت وقلت لأسرتي أنني أحب شخصًا ماذا سيفعلون بي! فتقبلت وقتها الوضع الذي يريدون، ومن هنا بدأت المعاناة، بدأ شغفي في الحياة يقل، يومًا بعد الآخر. لقد زوجوني من ابن عمي، وكان طبعه صعبًا جدًا؛ فبعد سنة من الزواج وبعد أن رزقنا الله بمولود كان يقوم بضربي وإهانتي إلى أبعد الحدود، ولكني كنت أصبر وأتحمل من أجل ابني؛ حيث أصبحت حياتي بلا معنًى، كنت أحكي لأمي، فترد بكل هدوء: «تحملي، لا يوجد بيتًا يخلو من المشاكل». وفي نفس الحين كنت أرى صديقتي ياسمين سعيدة في زواجها، أحيانًا كنت أشعر بالغيرة، ولكني كنت أقول بداخلي إنها تمتلك مشاكل في حياتها هي الأخرى، وليس الظاهر أمام الناس يدل على العيشة التي تعيشها ياسمين. عندي سؤال: «كل إنسان كُتِبَ كتابه قبل أن يولد؟ فهل ذلك يدل على أن الله خلقني لأذوق طعم المر والإهانة في الحياة»؟

فأوقفتها قليلًا وقلت لها:

- لا يا سلمى؛ فالله -عزوجل- خلق الإنسان ليكرم في الحياة وعزز الإنسان عن سائر المخلوقات، ولكن إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، وهنا نرى أن الله يختبر صبرنا في الحياة، وهل سنكون قادرين على أن نصبر على كل بلاء؟! فكل إنسان له ابتلاء في حياته، فممكن

أن يعطي الله الإنسان الصحة يأخذ منه المال ويعطي آخر المال، ويأخذ منه الصحة، فالله له حكمة في ذلك.

ثم سألتها:

- هل يوجد شيء آخر تريدين أن تتحدثي عنه؟

- لا.

ثم رددت وأنا مبتسم قليلًا:

- مشكلتك بسيطة، وهذا لا يعني أنني أقلل من حجم المشكلة، ولكن أنا أريدك أن تكوني قادرة على مواجهتها، وليس الهروب منها، وعدم فقدان شغفك في الحياة، أريدك أيضًا أن تكوني قوية؛ فلا تسمحي له بإهانتك مهما حدث واذهبي إلى بيت أسرتك حتى يتغير، ولا يعنى كلامي بأن تتركيه، ولكن أظهري له أن لكِ بيتًا ولكِ كرامة ولن تتنازلي أن تعيشي معززة، ولكن قبل أن تفعلي ذلك يجب أن تكوني مهيئة دينيًا قبل أن تكوني مهيئة نفسيًا، أريدك أن تصلي وتتقربي من الله، وأن تقومي بقراءة ورد يومي من القرآن، وتذكرين الله كثيرًا وتدعين الله أن يفك كربك، وأريدك ألا تفكري في أن الله خلقنا ليعذبنا، وسوف أنتظرك الأسبوع القادم لنتحدثَ مرة أخرى.

ثم خرجت سلمى وناديت على محمد:

- هل يوجد شخص آخر اليوم؟

قال:

- إنك تدرك يا دكتور أن الناس بالقرية لا يقتنعون بهذا الكلام.
قمت وذهبت لأجلس قليلًا في الأرض خلف منزلنا، وهي أرض مليئة بالخضرة وأشجار الفاكهة الجميلة، وأخذت أفكر وأسأل نفسي:
«هل تسرعت في هذه الخطوة»؟
فيأتي صوت آخر من داخلي:
«لا تيأس يا وجدي، هناك مزيد من الوقت».
ثم أتى غروب الشمس، فقمت وذهبت إلى البيت، وجلست قليلًا مع أسرتي، ثم تركتهم ودخلت إلى غرفتي، وجلست على سريري، فراودتني القصة التي روتها سلمى؛ حبها القديم؛ حيث كنت كذلك..

***

كنت أحب فتاة تسمي «آلاء» وكانت هي الفتاة التي تملَّكت من قلبي في أول لقاء بيننا، فعندما ذهبت إلى القاهرة لدراسة الطب، تعرفت على مجموعة من الأصدقاء؛ أربعة من الشباب، وثلاث من البنات، وكانت آلاء الفتاة ذات البشرة البيضاء المملوءة بنقاط البنية الجميلة والشعر الناعم، وكانت تتميز بالهدوء عن باقي الفتيات؛ فلا تمازح ولا تختلط مع أحد، وكل حديثها في حدود الدراسة، وكنت أنا كثير المرح؛ حيث كنت أريد الخروج من الكبت الذي عشته في القرية، فكنت معجبًا بآلاء وأردت التقرب منها بكل الطرق الممكنة؛ حيث قمت باصطناع أنني أريد أن أصور الورق

أو أطلب منها أدوات أو أي شيء آخر يجعلني أتحدث معها، وفي يوم جمعت كل قواي وقلت لها:

- بصراحة يا آلاء أنا معجب بكِ، وأريد أن نكون أصدقاء أكثر من ذلك.

فانفعلت وقتها وقالت لي:

- أنا لا آتِي إلى هنا لكي أصنع صداقات.

ثم تركتني وذهبت، وكان بعض الأصدقاء ينظرون إلينا من بعيد. كنت حزينًا جدًا، ولم أذهب إلى الجامعة إلا بعدها بيومين، دخلت هذا اليوم على أصدقائي وقمت بإلقاء السلام عليهم، وقلت لهم:

- سوف أذهب إلى الكافيتريا.

كنت لا أريد الذهاب إلى هناك، لكني ذهبت حتى لا أجلس معهم؛ لأنني كنت حزينًا من ردِّ فعلها؛ حيث وأنا جالس تلقيت صوتًا مملوءًا بالأنوثة، يقول لي:

- هل يمكنني الجلوس معك قليلًا؟

عجز لساني عن التحدث لثواني، ونسيت كل شيء فعلته.

قلت لها:

- بالتأكيد، اجلسي فأنت جالسة بداخل قلبي.

قالت:

- شكرًا.

في خجل واحمرار وجهها الذي خطف عقلي وقلبي، ثم رددت قائلة:

- أنا أعتذر لك عما فعلته من يومين، فأنا لم أقصد ذلك، ولم أكن أريد إحراجك أمام أصدقائنا، ولكن لأول مرة في حياتي أتعرض إلى ذلك؛ حيث إن علاقاتي محدودة جدًا.

قولت لها:

- ما فعلتِه كان عين العقل، ولكني ما زلت أصر أن نصير أصدقاء ونتقرب من بعضنا أكثر من ذلك.

رددت بلهجتها الهادئة:

- تمام يا وجدي.

ثم نظرت إلى ساعتها وقالت:

- أنا سأذهب إلى المحاضرة، وبإذن الله غدًا نلتقي ونجلس سويًا.

***

فرحت كثيرًا، وكان بداخلي شعورٌ غير طبيعي؛ فغيم كل شيء من حولي، ولا أرى غيرها. كنت أنظر إليها وهي تمشي نظرة الحبيب إلى محبوبته، وكانت ضربات قلبي تدق بطريقة وكأنها ستنخلع، فالسعادة كانت تغمر قلبي ولأول مرة في حياتي، ثم أخذت أفكر فيما دار بيننا، وبعدها لم أذهب ذلك اليوم إلى المحاضرة، فكانت حالتي النفسية في ذلك اليوم لا تسمح بأي شيء من بعد ما حدث،

فذهبت إلى السكن حتى أنام إلى أن يأتى اليوم التالي بأكبر سرعة ممكنة، وكأني أريد أن أخترق الفجوة الزمنية حتى أراها.

ثم أتى اليوم التالي، قمت وارتديت أفضل الملابس التي أمتلكها، وارتديت وقتها الألوان التي اعتدت عليها؛ ثم ذهبت إلى الجامعة، فكنت ألتفت حول نفسى لأراها بأي شكل. قابلت أصدقائي وهي لم تكن موجودة بينهم، سألتهم:

- أين آلاء؟

ضحك سمير صديقي فهو شابٌ مرحٌ ويحب المزاح كثيرًا، وقال لي:

- لا يا وجدي، حبيبة الروح لم تأتِ اليوم.

فضحك أصدقائي جميعهم، ثم رددت عليه بلهجة شديدة:

- ماذا تقصد بحبيبة الروح؟ أنا أريد أن أطمئن على صديقاتنا لا غير.

قال:

- لا أقصد أي شيء، فمن الممكن أن يكون عندها بعض المشاكل.

ثم ذهبنا إلى المحاضرة، وكنت حزينًا لأنني لم أرَها اليوم، فذهبت بعدها إلى السكن وكنت غير راضٍ عما سيحدث؛ لأن اليوم الخميس وأنا لم أرَها حتى يوم السبت، فكان الوقت يمر ببطء شديد، حتى أتى يوم السبت فذهبت إلى الجامعة وأنا منتظر لقاءها بكل شغف، فحين دخلت وجدتها جالسة بمفردها، فقمت بالذهاب نحوها وقلت:

- انتظرتك كثيرًا يوم الخميس ولم تأتِ!
فاعتذرت وقالت:
- كنت أمر ببعض المشاكل في منزلي، وقد مرت على خير،
فطلبت أن أجلس معها قليلًا فردَّت بصوتها الرقيق:
- تفضل.
ثم سألتها عن عنوان منزلها بالقاهرة.
فقالت:
- في مصر الجديدة.
سألتها قائلا:
- هل لك أخوة؟
قالت:
- نعم، فأنا الكبيرة، ولدي ولد وبنت.
ثم سألتها عن والديها فقالت:
- أبي توفاه الله وأنا في السادسة من عمري، وعشت مع أمي، فهي اعتنت بنا كثيرًا.
ثم وجهت لي نفس الأسئلة فأجبتها، وبعدها تحدثت عن انفصال أبي من أمي، وأنني أعيش مع والدتي منذ العاشرة من عمري، وكان وجهي حزينًا وأنا أتحدث عن هذا الموضوع.
فردَّت بنبرتها الرقيقة التي تخطف قلبي دائما وقالت:
- أنا لم أقصد أن أذكرك بالماضي.

قولت لها بأسف:

- هذا واقع وأنا أعيشه، ولم يتغير ولكن كنت أتمنى أن أعيش في أسرة مستقرة.

فقالت لى:

- لا توجد حياة مستقرة يا وجدي، كلنا نمر بمشاكل وهموم، ولكنها تختلف من شخصٍ إلى آخر.

ثم نظرت إلى ساعتها ذات اللون الذهبي وقالت:

- لقد تأخرنا عن المحاضرة!

كنت أنا في ذلك الوقت في منتهى سعادتي، فقد وجدت من أشكو له ما يوجد في داخلي.

***

بدأت الأيام تتوالى، ودارت الأسابيع تقرِّبنا أكثر مما كنا عليه من قبل، وأصبحت أقرب شخصٍ إلى آلاء في حياتها، وكنت مستعدًا لمقابلة والدتها حتى أقص لها ظروفي، وأعبر لها عن حبي الشديد لها، لكني غير قادر على خطوة كتلك، وكنا وقتها في منتصف الفصل الدراسي الأول، وكانت تمر بمشاكل كبيرة مع أسرتها في تلك الفترة؛ حيث كانت هذه المشاكل تدور حول الإرث، وأن عمها يريد أن يأكل حقها في ميراث والدها؛ لأن آلاء أكبر إخوتها فكانت هي صوت العائلة، وكانت تريد أن تأخذ حقها وحق إخوتها، ولكن

عمها لا يريد ذلك وأنا في تلك الفترة كنت أقوم بمواساتها والوقوف بجانبها بأكبر شكل ممكن، فأنا لا أملك شيئًا آخر سوى ذلك.

***

ثم في يومٍ ما، كنا نتحدث في الهاتف وسمعتها تبكي بشدة وتقول: «أنا أرهقت كثيرًا يا وجدي ولا أدري ماذا أفعل»! فوجدت نفسي أرد بكل تلقائية سوف آتي لأقابل والدتك غدًا لكي أطلب يدك.

تغير صوتها مائة وثمانون درجة وقالت:

- أنا أحبك كثيرًا يا وجدي، ولا أدري كيف أرد لك ذلك! سوف أذهب لكي أتحدث مع أمي لأحدد لك الوقت الذي ستأتي فيه غدًا.

جلست وأنا أحدث نفسي وأقول: «ماذا تفعل يا وجدي! إنك غيرُ جاهزٍ وغير قادر على شراء أي شيء»؛ فقد كنت لا أرى أي وسيلة تسعدها في ذلك الوقت غير ذلك. ثم قمت بالاتصال على أمي لأخبرها ماذا فعلت، فتلقيت رد فعل متوقع منها، فقد عنفتني كثيرًا وقالت:

- ماذا ستقول للناس وأنت لا تملك شيئًا؟ أنا لا أوافقك على ذلك يا وجدي.

تنهدت وقولت:

- أنا أحبها كثيرًا، وهي كذلك فلماذا يجب علي امتلاك شيء لأقوم بخطوة كتلك! أنا ذاهبٌ غدًا، وليحدث ما يحدث، أهم شيء أن أفي بوعدي لها.

فرددت أمي وقالت:

- سوف نتحدث في وقت آخر.

شعرت أنها حزينة عندما أنهت معي الهاتف وذهبت إلى النوم، وأتى اليوم الذي شعرت فيه أن جسدي يرتعش، ثم قمت بالاتصال على آلاء وقلت لها:

- هل حددتِ الوقت مع والدتك؟

- نعم وهي تنتظرك في تمام الساعة السادسة مساءً.

قمت للاستعداد وداخلي مرتبك، وشعور أن هناك شيئًا سيئًا سوف يحدث مسيطرٌ علي، لأنني أخذت هذه الخطوة وأنا غير قادرٍ على فعلها.

وأتت الساعة الرابعة عصرًا، فقمت لأرتدي ملابسي، تمالكت أعصابي، حدثت نفسي بأن هذا الموقف يجب أن يحدث في أي يوم من الأيام.

***

ذهبت إلى منزلهم، وكان الحي الذي يسكنون فيه مملوءًا بالمساحات الخضراء الواسعة والأشجار الجميلة، حتى الأشخاص الذين يسكنون في الحي يتسمون بالرقي. قمت بالاتصال عليها،

وقلت لها إنني متواجد في الحي، ولكن لا أعرف كيف أصل إلى منزلها، ثم قامت بوصف المكان فذهبت إلى هناك فوجدتها تنتظرني بالشرفة، وكان وجهها يبدو عليه الفرحة الشديدة، ثم ذهبت إلى مدخل العمارة والتي تحاوطها المرآة من الجانبين، فنظرت إلى نفسي حتى أتاكد من هندمة ملابسي، وذهبت إلى الدرج، وبدأت أضع قدمي على كل درجة بتوتر كبير، حتى وصلت إلى الشقة فوجدت آلاء تنتظرني وهي مبتسمة.

دخلت وقمت بإلقاء السلام على والدتها، وجلسنا سويًا، وأخذت تسأل عن حياتي وأين أسكن وعن أهلي أشياء كثيرة تخصني، فقمت بشرح حالتي لها وأن أهلي أشخاصًا ميسورين الحال، فأخذت تسمع مني كل شيء ثم ردت وقالت:

- يبدو أنك شخص تتسم بالاحترام، ولكنك غير مؤهل لهذا في هذه الفترة، فيجب عليك أن تدرك أن آلاء لها عم كبير، وهو في مقام والدها حتى في وجود المشاكل بيننا، فهو الولي عليها.

ثم طرق الباب وهي تتحدث وقالت لآلاء:

- اذهبي لفتح الباب هذا عمك مصطفى.

فتغيرت ملامحي، وبدأ قلبي ينبض بسرعة رهيبة، ويداي تهتز.. حتى آلاء تبدلت حمرة وجهها إلى كدرة، وكأن والدتها وضعتنا أمام أمر واقع.

دخل عمها وكان يبدو عليه النزاهة والنفوذ القوية، وقام بالترحيب بوجه صارم؛ فهو لا يبتسم.. وأخذ يسألني نفس الأسئلة التي قامت والدة آلاء بطرحها علي، فأجبت على كل الأسئلة
فرد قائلًا:
- أنت غير مؤهل حاليًا لفتح بيت، حتى مستواك الاجتماعي غير المستوى الذي تربت عليه آلاء. وأنا لن أقوم بترك بنت أخي في أي مكان.
فابتسمت ابتسامة خفيفة وأنا أشتعل من داخلي وأقول لنفسي: «هذا الحرامي السارق لإرث أولاد أخيه يريد أن يقوم بإقناعي أنه يحبهم ويخاف على مصالحهم»!
فحين كنت أنظر إلى آلاء أرى أعينها مملوءة بالدموع، وكأنها تريد أن تنفجر، فقمت من مكاني واستأذنت للخروج. فعندما نزلت كانت بداخلي كسرة لم انكسرها من قبل، فكان قلبي الذي ينزف لا أعيني. كيف سأترك آلاء بهذه السهولة! وكيف سأذهب وروحي بداخلها! هذه الفتاة التي ملكت قلبي وعقلي وجسدي! كيف سأتحمل فراقها!
ذهبت إلى السكن وقمت بالاتصال على آلاء، ولكن هاتفها كان مغلقًا.. كنت كثير القلق عليها، ولكن لا يوجد بيدي شيء آخر. وكان آخر امتحان لنا يوم الخميس، فرت الأيام في عسر شديد، وجاء يوم الخميس، وذهبت إلى الجامعة وكنت متأخرًا على الامتحان فذهبت إلى لجنتي في أسرع وقت، ثم انتهيت فخرجت

لأبحث عن آلاء، فلم أرَها. سألتُ أصدقائها الذين معها في اللجنة قالوا إنها انتهت من الامتحان، وذهبت مسرعة وكأنها تهرب مني، فرجعت إلى السكن، وكنت حزينًا لأنني سأسافر إلى القرية، ولم أرَها لساعة حتى وقت مغادرتي القاهرة.. وفجأة وأنا أتذكر كل هذه الذكريات ذهبت في نومٍ عميق.

(متهمشين)

زي الحواديت بتعدي أيامنا سواء؛ ببدايتها المبهجة ونهايتها التعيسة والمؤلمة. ما بين اختلاط السعادة والحزن وما بين الأمان والخوف.

أوقات الواحد مننا يشعر بالوحدة والتهميش حتى ولو كان حواليه كل الناس وكأنه محطوط على الرف وكل شيء بيحتاج إلى احتواء وحب بطريقة مختلفة عن أي شخص آخر. ففي بعض الأوقات بسأل نفسي سؤال مهم جدًا: «هل وجود شخص معين في حياة الإنسان قادر على أن يجعل الإنسان يتخطى الكثير من الضغوطات التي يمر بها وأن هذا الشخص قادرٌ على أن يخلق عالم آخر له»؟

نعم، فكل شخص يحتاج إلى يد تربت عليه وتخطفه من وسط زحمة الحياة، يحتاج إلى شخص يكون له سند في حزنه قبل فرحه، يكون نسمة الهواء الدافئة في الهواء القارص. فحقًا وجود شخص قادر على مفهوم الحياة لنا، قادر على خلق السعادة وحب الحياة، فلا حياة بلا حب.

فالحب هو المفهوم القادر على تغير الحياة من الضمار إلى السلام، ولا يوجد حبٌّ من غير عاشقٍ ملهوف يحارب الدنيا بأكملها من أجل من يحب، فأكبر مثال وقدوة لنا هو رسولنا الحبيب -صلى

الله عليه وسلم- حين تكلم عن عائشة -رضي الله عنها- وقال: «إني رزقت حبها».

فكان النبي يفتخر بحبه لزوجاته ويظهره على الملأ أجمع حتى إذا أحب الله -تعالى- العبد نادى جبريل -عليه السلام- إن الله تعالى يحب فلانًا فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء أن الله يحب فلانًا فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض.

فالحب هو المحرك الأساس لكل نفس بشرية، فإنه يظل حتى بعد رحيل الجسد عن الحياة، فإن الشيء الوحيد الباقي للإنسان هو حب الناس له؛ فاللهم اجعلنا من المحبوبين في الأرض والسماء.

«الفصل الثالث»

استيقظت بعد نومٍ عميقٍ، نظرت إلى هاتفي فوجدت الساعة الرابعة عصرًا. من الواضح أنني انغمست فى أعمق نومٍ، قمت واتصلت على محمد، فرد قائلًا:

- إيه النوم دا كله يا دكتور بتصل بيك من الصبح.

اعتذرت إليه، ثم قال إن شخصًا ما ينتظرني فى العيادة ويقول إنه صديقي،

فنظرت في استغراب ثم قلت له:

- ما اسمه؟

قال:

- رامي المصري.

فضحكت وقلت:

- غير معقول، سوف آتي إلى العيادة في أسرع وقت.

***

حين نطق لي اسم رامي بدأت كل الذكريات أمام عيني وكأني أعيش بها، كان رامي من أعز أصدقائي في مرحلة الثانوية، ويسكن بالقرية المجاورة لنا، وكان ذا خلق شديد، كنا نتقابل دائمًا على الطريق العمومي، ونذهب إلى المدرسة سويًا، فهو شخصٌ بشوش

ومتفائل جدًا، فلا يشتكي من شيء، حتى لو كان حزينًا لا يفصح ولا يتكلم عن مشاكله الشخصية لأي شخص مهما كانت درجة قربه منه.

ذهبت إلى العيادة ورأيته يجلس في غرفة الاستقبال، فانطلقت مسرعًا إليه وأخذته في حضني؛ حيث مرت سنين ولم نلتقِ.

قال:

- إيه الحلاوة دي يا دكتور وجدي! بقيت حد تاني خالص.

ضحكت وقلت:

- أنت اللي زي ما أنت يا رامي، أحلى وأشيك واحد فينا.

ثم أخذنا نتذكر كل ما مضى، وسألته عن حياته قال إنه تزوج، ورزقه الله بطفلين ولكن يواجه بعض المشاكل الأسرية. وأخذ يحكي أن زوجته في مشاكل دائمة مع والدته، وأنه غير قادر على إصلاح الأمور بينهما، وزوجته لا تريد أن تعيش مع والدته في بيت واحد؛ حيث تقول إنها لم تأتِ لكي تخدم والدته وأن هذا الكلام يؤثر على نفسيته كثيرًا، غير إنها في مشاكل دائمة مع البنات إخوته. أخذت أسمعه ولم أوقفه عن الكلام؛ وذلك لاستغرابي الشديد؛ لأن رامي لا يفصح عن حياته الشخصية لأحد. استمررت فى الإنصات إليه وأنا سعيدٌ لأنه عندما احتاج إلى الحديث مع أحد لجأ إليَّ.

قال:

- لا أعرف ماذا أفعل، لقد أرهقتني هذه المشاكل، وأنا لا أستطيع أن أرضي الطرفين؛ خاصة أن والدتي تأخذ الأمور بحساسية، ولو تحدثت معها ستحزن وتجلس باكية، وأنا لا أريد أن أحزنها؛ لأنها أصبحت عجوز، وصحتها لم تبقَ كما كانت في الماضي.

فقولت له:

- الخطأ كله يقع عليك يا رامي، لا يصح وجود زوجتك مع أمك في بيتٍ واحد، وتقول إنها لا تريد النزول وهي لم تأتِ لتخدم والدتك. ولكن من الرحمة عندما ترى والدتك مسنة ومريضة تبقى بجانبها وتعتبرها كوالدتها، لكي تفهم ذلك، يجب ألا تعنفها، وتشرح لها الأمور ببساطة، وأنك تريدها أن تفعل ذلك من أجلك؛ لأن هذا سوف يسعدك، وما تفعله سيرد لها في المستقبل وكل ما نبنيه اليوم نحصده في الغد، ويجب عليك أن تكون حكيمًا أكثر من ذلك، ثم إنني لم أرك حزينًا بهذا الشكل من قبل.

نظرت إليه فوجدت علامات الحزن تظهر على وجهه بشكل كبيرٍ، فخبطت بيدي على كتفه وقلت:

- افرح يا صديقي ولا تحمل لها همًا.

أخذته وذهبت إلى المقهى الذي كنا نجلس عليه أيام الدراسة، وهي ترجع إلى التراث القديم الذي مرت عليه السنين حتى تآكلت جدرانه، وصور عبد الحليم وأم كلثوم التي تملأ المكان من جميع

الاتجاهات، حتى عم فوزي.. فعندما رأيته كان بنفس مظهره ووجهه المليء بالتجاعيد والشعر والرموش البيضاء.

عندما دخلنا ذكَّرناه بنا، رد قائلًا بلهجته الصعيدية الجميلة:

- مرحب بولد الزين.

فكان عم فوزي من سوهاج وأتى إلى الشرقية بسبب بعض المشاكل، وعاش فيها طوال حياته.

قلت له:

- كيف أحوالك يا عم فوزي؟ كنت أفتقدك كثيرًا، ومن المؤكد أنك تعرف ما نريده.

- بالطبع.. أحلى فنجان قهوة.

فجلست أنا ورامي وتذكرنا كل شيء مر علينا في حياتنا، وكم هي مؤلمة هذه الحياة، فما عشناه في ليلة أمس يصبح في اليوم التالي ماضيًا كأنه لم يحدث، وكم من أشياء تركناها وهي تعيش بداخلنا! وكم من أشخاص دخلوا حياتنا وخرجوا وكأنهم لم يكونوا إلا ذكرى تُحكَى يومًا من الأيام؛ فالقدر يلعب معنا! فما نريده وبشدة لا يصبح من نصيبنا ويصبح نصيبَ شخصٍ آخر، ومن كان في حياتنا اليوم يصبح غريبًا الغد، ولا يمكن السيطرة على تقلبات الحياة؛ فلا راحة فيها فهي دار بلاء.

ثم نظرت إلى ساعتي فوجدتها الواحدة صباحًا فقد سرقنا الوقت كثيرًا ولم أشعر بمروره..

- أنا آسف يا رامي سوف أذهب حتى أستيقظ غدًا في الصباح؛ لأنه يوجد لدي مشوار مهم.

رد وقال:

- لا يهمك يا صديقي، أتمنى أن أراك عن قريب.

قولت:

- بالتأكيد، فليس لدينا غير بعضنا.

قمت وذهبت إلى بيتي، ودخلت ولم أجد أي فرد من الأسرة كان الوقت قد تأخر، فدخلت إلى غرفتي وقمت بضبط المنبه على الساعة العاشرة صباحًا، ووضعت رأسي على السرير وغرقت في النوم.

***

«الفصل الرابع»

استيقظتُ في تمام العاشرة صباحًا. دخلت إلى المرحاض وغسلت وجهي وأسناني، ثم جهزت الفطار لنفسي.

ذهبت إلى المقابر وهي في البر الآخر من القرية، فقد افتقدت وبشدة أن أذهب إلى هناك وأحكي لجدي كل ما يدور بداخلي، فمنذ صغري وأنا أحب أن أحكي له.

كان جدي رجلًا عظيمًا، لم أرَ في حياتي شخصًا بهذه السلاسة والمودة والرحمة التي بداخله، قد مرت فترة في حياته وقام أهل القرية باختياره للترؤُّس بمنصب العمدة؛ حيث أتذكر في يومٍ قام ابن عمي بالتشاجر مع فرد من قرية مجاورة لنا والافتراء عليه. فوجدت ردَّ فعلٍ من جدي وقتها لم أرَه من قبل، فكنت لأول مرة في حياتي أرى جدي بهذا الشكل؛ فقد قام بضرب ابن عمي وإهانته أمام القرية بأكملها، وقال جملة لم أنسَها في حياتي وهي: «الأقوى يا عامر فيه الأقوى منه، لا تفترِ على أحد يا عامر حتى لا يأتي من يفتري على أهلك». وقام يومها جدي بإرضاء الرجل، فهو لا يحب أن يظلم أحدًا. لم أرَ في حياتي شخصًا بهذا الجمال والحكمة. قمت بالذهاب إلى «المعدية» لكي تنقلني إلى البر الآخر من القرية.

***

أرى أن أنسب تشبيه للحياة هو التشبيه ب«المعدية»؛ حيث كل يوم يركبها أشخاص مختلفين ولا تقف على أحد، وكذلك الحياة كل يوم نكتسب أشخاصًا ونخسر أشخاصًا وحياتنا تستمر، فلا تتوقف على أي شخصٍ مهما كانت درجة قربه لنا، وكما يقول المثل: «المعدية لا تقف على أحد حتى ولو كنا أصدقاء الطفولة». فزحمة الحياة تسرقنا وتلهينا؛ حيث نرى أن كل شخصٍ منا ينغمس في مشاكله ودنيته الخاصة. أحيانًا نحتاج إلى أشخاصٍ معينة يسألون علينا، ويكونون بجانبنا؛ لأن من أسوأ أنواع الوحدة تلك التي تجتاحك وأنت بين أهلك وأصدقائك، ولكن لا يمكننا أن نطلب من كل فرد في حياتنا أن يلازمنا طوال الوقت، أو حتى في وقت الشدة، فلا يمكننا اللوم على أحد؛ فكل فرد له مشاكله الخاصة.

نزلت وذهبت إلى المقابر، وجلست أبثُّ شكواي كعادتي إلى جدي، كل ما يدور بداخلي، حتى تمنيت لو كان موجودًا في ذلك الوقت الذي أشعر فيه بنجاحي. وحين كنت جالسًا سمعت صوت همس خلفي فالتفتُّ لأرى؛ فوجدت شابًا شاحب الوجه والهالات السوداء تحيط عينيه وكأنهم عائمان بها. جلس وبدأ يتحدث في سره ويشكي، حتى تحولت هاتان العينان الجافتان إلى دموع غزيرة تتساقط كما الأمطار، وكنت أنا أنظر بطرف عيني وأقول لنفسي:

«يجب أن أتحدث إليه، فأنا دوري مساعدة البشر في الحياة، وليست العيادة فقط».

ذهبت نحوه وقلت:

- هل يمكنني أن أتحدث إليك قليلًا؟

فنظر إليَّ وقام بمسح دموعه ورد بتعجرف شديد:

- لا أريد أن أتحدث مع أحدٍ.

وحين نظرت عن قرب في وجهه رأيت شخصًا مكسورًا قد أهلكته الحياة.

أخذت نفسي وذهبت إلى العيادة، ولم يكن ينتظرني أحد، فمرَّ اليوم. أتى اليوم التالي، تلقيت اتصالًا من العيادة بأن شخصًا قام بقطع كشفٍ وينتظرني.

قمت وجهزت نفسي وذهبت.. وكانت المفاجاة حين دخلت؛ لقد رأيت الشاب الذي قابلته في المقابر ليلة أمس! دخلت وقمت بإلقاء التحية عليه، وكانت يداه مليئة ببعض الندوب وكأنه قام بجرح نفسه بآلة حادة ولكن لم أهتم بذلك.

قال:

- أنا أعتذر لك عن ما فعلته ليلة أمس، فقد كنت غير واعٍ لتصرفي، وبعد ذلك سألت عنك عم عوض حارس المقابر، وقد وصف المكان ولم أتردد للحظة في أن آتي إليك وأعتذر.

قولت له:

- حصل خير، اتفضل.

وذهبنا إلى غرفة الكشف،

وبدأت أسأله بعض الأسئلة البديهية عن اسمه وعمره والعمل وهكذا.

رد قائلًا:

- عمر، ٣١ سنة، خريج كلية الهندسة، ولا أعمل في الوقت الحالي لحدوث بعض المشاكل.

ثم سألته:

- هل جئت إلى هنا لكي تعتذر فقط أم تريد أن تتحدث معي؟

قال:

- لا، ليس هذا السبب الوحيد، فعندما عرفت أنك طبيبٌ نفسيٌ، شعرت أنني أحتاج لكي أتحدث وأخرج كل ما بداخلي.

قلت:

- من فضلك أرخِ جسدك على كرسي الكشف، واحكِ كل ما يدور بذهنك.

***

هذه المرأة التي كنت أجلس عند قبرها وأطلب منها أن تسامحني، هي أمي، فقد ماتت بحسرتها على ما أوصلتها إليه حيث عندما دخلت إلى كلية هندسة، كنت شابًا فضوليًا لدرجة لا أحد يتخيَّلها، فأنا أحب أن أجرب كل شيء، كان شغفي يأخذني إلى

طرق بعيدة، وفي يوم جلست أنا ومجموعة من أصدقائي في بيت أحدهم، وكنا نجلس طبيعيًا حتي طرق الباب، وكان الشيطان هو من طرق الباب. دخل شابٌ يُسمى الأسطورة، كان شكله غير طبيعيٍّ يبدو عليه أنه يتعاطى المخدرات بكثرة، ثم وضع يديه في الحقيبة التي يرتديها وأتي بالكثير من المخدرات، فوجدت كل أصدقائي يضحكون وقال مصطفى: «شكلها ليلة صباحي». ثم بدأوا في الشرب وبدأ يعرض عليَّ وأنا لم أرفض، كنت أريد أن أجرب ذلك، ومن بعد هذا اليوم أعجبت كثيرًا بالموضوع، وأصبحت مدمنًا عليه، وأخذت أذهب كل يوم لأتناول المخدرات، فقد أهملت دراستي وحياتي من أجلها، وفي يوم قام الأسطورة بإعطائي حقنة، وقال: «اذهب إلى الغرفة، وأنا آتي إليك». ثم جاء وقام بغرسها في يدي، وحينها أصبحت عروقي تنتفض، كنت أشعر أنني في عالم آخر وكأنَّ الدنيا تدور من حولي، فكل هموم الحياة قد نسيتها. كانت المخدرات هي المهرب الوحيد لي في هذا العالم، فكنت حين أشربها أشعر بأني لا أريد أي شيء غيرها. وفي يوم من الأيام كنت ذاهبًا إلى البيت وأنا تحت تأثير المخدر وغير واعٍ، قمت بفتح الباب ببطء شديد حتى لا يسمعني أحد، وبقيت أتحسس موضع قدمي حتى وجدت أمي تقف أمامي، كنت أضع عيني في الأرض ولا أقدر على رفعهما أمامها، قامت أمي بالصراخ في وجهي، ورفعت يدها وأسقطتها على وجهي وقالت: «لقد ضاع عمري عليك

حتى تصبح مهندسًا وإنسانًا متزنًا وفي نهاية الأمر تتعاطى مخدرات، أنت إنسان فاشلٌ ولا تستحق غير الإهانة». وكانت تبكي وهي تقول هذا الكلام، فقامت بمسح دموعها وقالت بنبرة شديدة: «ادخل إلى غرفتك، لا أريد أن أرى وجهك».

***

كنت أقف على استحياء، ولا أستطيع أن أنطق، دخلت إلى غرفتي ودخلت في نومٍ عميق حيث إن تناول المخدرات يجعل الجسم غير قادر على الحركة وكأنه مشلولٌ. وفي اليوم التالي تلقيت ردَّ فعل من أمي غير متوقع نهائيًا؛ حيث قامت أمي بتقديم بلاغ لمصحة مكافحة المخدرات وتلقوا طلبها على الفور، وأتَوا لأخذي، كنت أقاوم بشدة وأضرب بيدي ورجلي كل شيء من حولي، وحين كنت أفعل ذلك كانت أمي وإخوتي يقفون وينظرون بقهرة علي؛ حتي أختي الصغيرة كانت تصرخ وتبكي بشدة. كان أبشع إحساس قد وصلت إليه في حياتي، من كانوا يأخذونني قدوة في الماضي، أصبحت أمامهم مثل المجرمين حتى نظراتهم كانت كلها شفقة في هذه اللحظة، تمنيت الموت أكرم لي ثم أخذوني إلى المصحة، وجلست هناك شهرًا وقمت بعدها بالهروب وذهبت إلى منزل مصطفى الذي كنت أذهب لتناول المخدرات عنده، ورجعت إلى نفس الدائرة مرة أخرى، ولكن هذه المرة كنت أتناول بشراسة؛ فأصبحت غير قادرٍ على تركها، حتى بيتي لم أذهب إلى هناك بعد

هروبي من المصحة. وفي يوم كنت جالسًا مع الأسطورة الديلر الذي يعطينا المخدرات، وعرض علي أن أعمل لحسابه، وأقوم بالتوزيع على المناطق المجاورة لنا.

قمت بالموافقة على عرضه فأصبحت لا يفرق معي شيء، وبدأت في العمل حتى أصبحت من أشهر الموزعين، وكنت أرى كمَّ الشباب المقتولين يوميًا بهذا السم، فكانوا يبيعون كل ما يملكون من أجل شراء المخدرات، وبعضهم كان يسرق أهله من أجلها؛ فهم لا يستطيعون أن يكملوا يومهم دون شربها. وفي يوم وأنا أقوم بالتوزيع جاء شخص ليستلم مني، وفجأة وأنا أقف معه أتت الشرطة وأخذوني إلى القسم، وبالطبع علمت أمي وأتت مسرعة إلى هناك؛ فوالله لم أرَ في حياتي كمًّا من الذل مثل الذي تعرضت إليه أمي بسببي، فقد كان القسم بأكمله ينادون عليها بـ«أم الشاب المدمن»، أمي التي عاشت حياتها بأكملها يحترمها الناس أصبحت محط إهانة؛ حيث كانت تتذلل لكل شخص حتى يساعدها، وما زلت حتى وقتنا أتذكر نظراتهم القاتلة إليها. ثم تحولت في اليوم التالي إلى النيابة، وهناك قام خالي بكفالتي، فهو يعمل بالمحاماة، وكان ينتظرني في الخارج.. أخذني من يدي وقال: «إن لم تكن أمك قادرة على تربيتك فأنا سوف أقوم بتربيتك»، وذهب إلى المنزل وقام بضربي حتى أصبح كلَّ جزء في جسدي أزرق، وكانت أمي جالسة تنظر إلى ما يحدث ولا تتكلم.

***

كانت أول مرة في حياتي أرى أمي بهذا الشكل، بعدها قام خالي بالاتصال على المصحة وجاؤوا وأخذوني للمرة الثانية، وجلست هناك ثلاثة أشهر، كنت وقتها قد خسرت كل شيء: أصدقائي، وعائلتي، وكذلك الفتاة التي كنت أحبها خسرتها..

كنت أحب فتاة وأنا في الثانوية تسمى «يارا»، كانت تتسم بالهدوء؛ ووجها صافٍ صفاء السماء، فكنت أراها في درس الفيزياء الذي يقام في منزلها، وكنا نتبادل النظرات فيما بيننا، وفي يوم وأنا جالس على أحد مواقع التواصل الاجتماعي وجدت الإيميل الخاص بها، فأرسلت إليها طلبًا وجلست أنتظرها في حيرة، حتى سهوت وأنا جالس وقمت فجأة على صوت إشعارٍ بقبول يارا للطلب. كنت سعيدًا للغاية، فقمت بإرسال رسالة وبادلتني بالرد، وبدأنا نتحدث، صارحتها بأني معجبٌ بها، وبعدها أصبحت أذهب إلى الدرس من أجلها، فكان كل تركيزي طوال الدرس عليها، حتى إنني أتذكر في يومٍ كنت أنظر إليها نظرة طويلة، وكان الأستاذ مندمجًا بالشرح، فانتبه وقال: «ماذا بك يا عمر؟ هل هذه المنطقة تعجبك أم أقوم بالشرح على وجه يارا»! فضحك من في الدرس ورددت عليه بضحك:

«أتمنى يا أستاذي»

دخلت هي يومها على الرسائل وأخبرتني أنها خجلت كثيرًا مما حدث، وهي لا يعجبها أن يتكلم أحد عليها، وطلبت مني يومها ألا أفعل هذه المواقف مرة أخرى.. وأنا اعتذرت لها، فهي كانت لا تحب أن يأخذ أي شخص عنها فكرة سيئة..

وكانت يارا من محبي فيروز وشرب القهوة وقراءة الكتب، فكنت دائمًا أشعر أنها وحيدة ولا يوجد لديها معارف، فكنت أنا وقتها أحاول بكل جهدي لكي أكون بجانبها.

وجاء يومٌ واعترفت لها بحبي، فكنت أرى أنها الفتاة الوحيدة التي تستحق أن تكون أمًا لأطفالي، ولكنها كانت غير راضية عن علاقتنا بهذا الشكل، ويجب علينا إخبار العائلة.

أخبرتها بأنني أوافق على ذلك، ولكن يجب أن أرتب أموري وننتهي من الثانوية وبعدها أدخل الجامعة وأقوم بالبحث عن عمل وأذهب إلى والدها وأحكي لها عن ظروفي؛ فأنا لا أريد أن أظلمها معي، ثم بعد دخول الجامعة بدأت حكايتي مع المخدرات وطريق الضلال الذي تعمقت فيه؛ فالظلام لا يجلب غير الظلام؛ حيث علمت هي بذلك وقالت إنها تريد إنهاء العلاقة وأنني لا أستحق أن تكون معي وبعض الكلمات التي أثرت عليّ نفسيًا؛ مما جعلني وقتها أشرب المخدرات بشراهة..

كنت أريدها النور الذي يجعلني أعود للطريق الصحيح، ولكنها تخلت عني بكل سهولة، مع إنها كانت الإنسانة الوحيدة القادرة

على تغيير حالي ومزاجي من الأسوأ إلى الأحسن؛ فهي نسيم الهواء الذي أتنفسه. كنت أحبها كثيرًا ولكن حينها فات وقت الكلام في ذلك. ثم أصبح كل أصدقائي يبتعدون عني، فكنت أقوم بالاقتراض منهم لكي أشتري المخدرات؛ حيث أتذكر أنني تشاجرت يومًا مع صديقي مصطفى بسبب ذلك؛ مما جعله يبتعد عني، أصبحت وحيدًا منهمكًا، شخصًا غير مرغوبٍ فيه؛ فالكل يخاف الاقتراب مني مما جعلني كرهت ذاتي حتى وقتنا هذا، ولكن أكثر الأوقات التي كسرتني كان يوم وفاة أمي التي ضحت بكل ما تملك من أجلي، أمي التي ماتت من حسرتها على ابنها.. فعندما جلست في المصحة ثلاثة أشهر هربت مرة أخرى وعدت إلى المخدرات، ولكن عندما خرجت هذه الفترة كنت لا أضع في تفكيري أن ترحل أمي عن الحياة بسببي. وذات يوم وأنا أتعاطى جاءني اتصالٌ بأنهم ذهبوا بأمي إلى المستشفى بسبب سوء حالتها، قمت كالمجنون.. كنت أجري في الشوارع جري المغشي عليه، حتى وصلت وقالوا لي وقتها إنها بغرفة العناية المركزة وأنها تلتقط أنفاسها الأخيرة.

وجاءت أختي ونظرت إلي بكل قسوة وقالت:

«إذا حدث شيء لأمي يا عمر لا أنا ولا إخوتك نريد أن نعرفك».

كنت أنظر إليها وأشعر أنني في دوامة، فقمت بالذهاب إلى المرحاض لكي أغسل وجهي، ونظرت إلى نفسي في المرآة وقلت:

«كم أنت قذر وأناني، لا تحب غير نفسك، أنت لا تستحق حتى أن تعيش، كيف ستسامح نفسك لو حدث لأمك شيء»!

رفعت يدي وصدمتها بقوة على المرآة حتى أصبح الدم يسيل بغزارة.. وفجأة سمعت صوت صراخ، خرجت مسرعًا لكي أعرف ماذا حدث، وكانت أمي قد توفاها الله.. وقفت في مكاني وأصبحت ألتف حول نفسي ولا أصدق؛ فالعالم يدور من حولي كنت صامتًا لا أتحدث ولا أفعل شيئًا غير البكاء، ذهبت لكي أرى أمي لآخر مرة في حياتي وبدأت أقبل في يديها وأقول لها:

«سامحيني يا أمي.. سامحيني أنا السبب في ذلك.. سامحيني».

أوقفته عن الحديث وأعطيته قطعة من القماش لكي يمسح دموعه، فكان منفجرًا من البكاء، ثم قلت له:

- أكمل يا عمر.

اكمل وقال:

- أسوأ إحساس في الدنيا يا دكتور عندما تكون السبب في أذى أقرب الناس إليك. والنقطة السوداء في حياتهم.

أنا الذي قتلت أمي بكل سهولة من أجل إرضاء شغفي وأنانيتي؛ فأنا لا أحب غير نفسي فقط، حتى إخوتي قد خسرتهم، فقاموا بمنعي من حضور الجنازة، هل أدركت لماذا أذهب كل يوم إليها وأجلس وأبكي وأطلب منها أن تسامحني؟ كل ما أتمناه في الوقت

الحالي هو أن أكون بجوارها؛ فلا أريد العيش بهذا العالم من دون أمي.

ثم سكت قليلًا ونظر إلي وقال:

- كل ما أريده هو الانتحار.

***

كان وجهه حزينًا ومنكسرًا فوضعت يدي عليه وقلت له:

- أولًا يا عمر وفاة والدتك لستَ أنت السبب فيها؛ لأن هذه أعمار ومقدرة منذ ولادتنا، أعلم أن والدتك كانت حزينة عليك قبل وفاتها، وهذا طبيعي؛ لأنها ترى أن ابنها يضيع منها، ولكن لست أنت السبب في الوفاة، أما بالنسبة إلى الإدمان فأنت كنت تفعل بحق نفسك جريمة، فجسدك له حق عليك، ولا يجوز لأي من بني آدم أن يفعل ما يخطر برأسه ما دام هذا يؤذيه، فأنا أرى أن بُعدَ أصدقائك وحبيبتك ما هو إلا رد فعل طبيعي لما وصلت إليه.

كان من الضروري أن تفهم أن هذا سيؤدي إلى مشاكل عديدة، وكل طريق نسلكه في حياتنا تكون عواقبه كثيرة؛ فلا تتعجب مما يحدث معك الآن، فكل ما أريده منك هذه الفترة هو أن تكون متماسكًا أكثر من ذلك، ولا يجب عليك أن تفكر في فكرة الانتحار؛ لأنه ليس الحل.. وكما تقول إن والدتك إنسانة طيبة وبإذن الله سيكتب لها الجنة فكيف ستكون معها وأنت منتحر؟ فالانتحار جريمة كبيرة في حق النفس وذنب كبير، ويجب عليك أن تزيل

هذه الأفكار الساذجة من رأسك، فكل ما أريده منك، البحث عن عملٍ والاجتهاد في مستقبلك، وأنا لا أريد أن أُكثر عليك الحديث؛ فيجب أن ترتاح وتفكر في كلامي، ثم نتقابل مرة أخرى لنكمل الحديث.

هل لديك مواعيد يوم السبت؟

رد وعيناه تملؤها الحسرة على ما وصل اليه:

- لا.

قولت له:

- سوف أنتظرك السبت القادم.

رد قائلا:

- وهو كذلك.

ثم قام بمد يديه وكان ينظر بطريقة غريبة إلى حد ما، ولكني لم أضع ذلك في ذهني؛ لأنه مرهقٌ نفسيًا ومن الممكن أن يصدر تصرفات غير واعٍ لها.

***

قمت بعدها وذهبت إلى الأرض الخضراء بجوار منزلنا لكي أستمتع بالهواء النقي والجو الذي أرتاح له كثيرًا، ثم وأنا جالس جاءني اتصال من رقم غير مسجل بالهاتف فأجبت:

- من معي؟

فرد صوت غريب وقال بلهجة تهديدية:

- لم أتركك ترتاح في حياتك يا وجدي.

فرددت بصوت متوتر:

- من معي؟ من معي وماذا تريد مني؟

قام بغلق المكالمة، فقمت بالاتصال عليه حتى أعرف من يكون ولكن قام بإغلاق الهاتف، التفتُّ حولي وكنت خائفًا كثيرًا وجلستُ أفكر في أن عمر هو من يفعل ذلك لأنه في مرحلة تشتت ذهني، فكانت نظرته غير طبيعية وهو ذاهب اليوم، قمت وذهبت مسرعًا إلى المنزل.. وحين دخلت وجدت أمي وإخوتي جالسين يتحدثون فجلست معهم، قالت أمي بلهجتها الجميلة التي أعشقها:

-هل حدث شيء يا وجدي؟ وجهك غير طبيعي!

نطقت بأرتباك:

- لا يوجد شيء يا أمي، أنا مرهق قليلًا.

ثم رد أخي محمود وقال:

- هذا أثر الجلوس مع المجانين!

رددت بعنف وقلت:

- إنهم ليسوا بمجانين، هم يعانون من بعض المشاكل التي أثرت على تفكيرهم قليلًا.

قالت أمي:

- أخيك لا يقصد!

فاعتذر محمود واعتذرت أنا على عصبيتي، ثم جلسنا نتناقش في الموضوع الذي يخص الأرض والقضية التي رفعناها ضد خالي منذ سنة، فقال أخي هاني:

- إن الحكم يقترب وبإذن الله سوف نكسب القضية.

كان هاني يدرس الحقوق ويفتح مكتب له بجوار منزلنا، وقال إن خالي تحدث معه ليلة أمس وقام بتهديده بأن يتنازل عن القضية حتى لا يفعل تصرفًا لا يعجبنا. فحين قال ذلك تذكرت المكالمة التي أرعبتني منذ قليل، فبدأت أشك أن خالي هو من قام بتهديدي؛ ولأن خالي يحارب منذ زمن على هذه الأرض، وعلى الرغم من أنها من حقنا فهو يريد أخذها بالغصب.

وعلى الرغم من أن جدي قد قسم الميراث منذ زمن إلا أن خالي كان يستغل مشاكل أمي مع أبي في تلك الفترة، فكان قد أجبر أمي أن تتنازل عن حقها في الأرض حتى يُقرضها بعض الأموال لاحتياجها الشديد لها؛ حيث كانت أمي غير متعلمة، فلا تعرف القراءة والكتابة، فقام باستغلالها ولكن أنا وإخوتي لا يعجبنا ذلك، وقمنا برفع قضية عليه.

فشككت أن يكون هو من يفعل ذلك معي، ثم استأذنتهم وقمت وذهبت إلى غرفتي، ونمت بصعوبة وكنت خائفًا من الاتصال الذي جاءني اليوم.

«الفصل الخامس»

رن هاتفي الساعة الواحدة ظهرًا، كان المتصل «محمد» فقال لي:

- ماذا ستفعل اليوم يا دكتور؟

رددت بصوتٍ منهكٍ:

- أنا آسف يا محمد، لا أريدك أن تفتح العيادة اليوم؛ لأني مرهقٌ، ولا أستطيع أن آتي.

كانت نفسيتي لا تطيق أي شيء من حولي، قمت وجهزت الإفطار ثم لبست ونزلت حتى أتجول بالقرية؛ فمنذ زمن وأنا لم أفعل ذلك، وأنا في طريقي مررت على بقالة «عم عبده»، كان من أقرب الأصدقاء لأبي، دخلت وقلت:

- السلام عليكم.. كيف حالك يا عم عبده؟

نظر إلي بعمق حتى يعرفني، فكان نظره ضعيفًا، ثم قال بصوته الغليظ:

- واحشني يا واد، مر زمن ولم أرك.

ثم أخذني في حضنه وقال:

- اجلس أريد أن أتحدث معك.

جلست وظل يحدثني عن مواقف حدثت في الماضي، وكانت وصلة ضحك بيني وبينه حتى أتت سيرة والدي وتعكر مزاجي فقال:

- يا وجدي، والدك قد كبر في السن، ويجب أن تكونوا بجانبه، أنا أعلم بظلمه لكم في حياتكم، ولكن يجب على الإنسان أن يسامح.. وخاصة أنه والدك، فهو يا وجدي كل يوم يريد أن يطمئن عليك أنت وإخوتك، حتى عندما عرف أنك قمت بفتح عيادة كان سعيدًا جدًا.

ثم أكمل حديثه قائلا:

- أبوك محتاج لكم بجانبه في هذا الوقت حتى لو كنتم لا تحبون أن يكون بجانبكم.

ثم أوقفته وسألته:

- أين يسكن الآن وكيف حاله؟

عندما كنت أسأله كان قلبي ينزف من وجعي على فراقه؛ فأنا على الرغم مما يفعله معي إلا إنني كنت أحتاجه كثيرًا في هذه الفترة. فأنا منذ صغري أتمنى أن أشعر بإحساس وجود أب.

رد قائلًا:

- أصبح حاله صعبًا؛ فهو يعيش على سطح إحدى العمارات في قرية مجاورة لنا، وقد ضعف جسده كثيرًا، فهو من يقوم بتحضير الطعام وكل شيء لنفسه.

وهو يحكي كانت عيناي تريد الانفجار من البكاء ولكني تمالكت نفسي.

قال:

- حتى المرأة التي تزوجها منذ عشر سنين، قامت بسرقته وهربت وتركت له فتاة.

فتعجبت وقلت:

- ألم يكفِه ظلمه لنا فقام بإنجاب فتاة لظلمها هي الأخرى!

رد عم عبده:

- لا تكن قاسي القلب يا ولدي، لقد تغير عن الماضي.

عندما كنت أنصت إلى حديثه رأيت شخصًا يقف بعيدًا وينظر إليّ ولا يبعد عينيه عني، ولكني لا أستطيع أن أحدد ملامحه؛ حيث يضع شالًا أسود على رأسه، فقد كنت أنظر إليه بطرف عيني، وكنت خائفًا، تمالكت نفسي وقلت:

- يجب أن أذهب لكي أعرف من هو؛ فمن الواضح أنه الشخص الذي قام بتهديدي ليلة أمس.

قال عم عبده:

- ماذا بك يا وجدي؟ أشعر أنك غير طبيعي!

رددت عليه بتوتر شديد؛ فكنت أتلعثم بالكلمات وقلت:

- لا يوجد شيء؛ سوف آتي إليك مرة أخرى.

أخذ ينادي وأنا لا أرد، وذهبت مسرعًا حتى أعرف من هو ذلك الرجل، فعندما ذهبت إلى هناك لم أجد شيئًا، التفت حولي بجنون حتى جاءت يد من خلفي وضعت على عنقي فالتفت ورفعت صوتي من الخوف وقلت:

- من أنت!

فوجدته حامد صديقي.

قال:

- ماذا بك يا وجدي!

كانت تتلاحق أنفاسي وقلبي تتسارع دقاته، وكأنه سيقف..

ابتلعت ريقي وقلت:

- لا يوجد شيء، كيف أحوالك يا حامد؟ منذ زمن ولم أرك!

قال مبتسما:

- أنا موجود.. أنت الذي لا يستطيع أحد أن يراك.

ثم اكمل حديثه:

على كلٍ، كنت أفتقدك، وأنا ذاهب إلى البيت رأيتك فجئتُ إليك كي أعرف كيف حالك.

شكرته وقلت له:

- سأراك قريبًا.

***

حينما كنت واقفًا معه كان عقلي في مكان آخر، ثم تركته وذهبت إلي مياه النيل التي توجد على أول القرية، وجلست أفكر فى الشخص الذي يطاردني، وماذا يريد مني وماذا فعلت لأي شخص حتى يفعل كل هذا معي؛ فأنا لا أؤذي أحدًا. ثم بدأت أتذكر الماضي بكل تفاصيله حتى أعرف هل فعلت أي أذى بأي شخص أم لا.

وظلت المواقف تمر أمام عيني وكأني أعيش فيها من جديد، فمهما حاول الإنسان الهروب من ماضيه يظل يطارده، فأنا لست قادرًا على محاربة ذكرياتي في بعض الأوقات، فالإنسان مع مرور الوقت يصبح عقله دولابًا مليئًا بالذكريات، فأي شيء يحدث في حاضره يربطه بماضيه. وعندما نفكر في المستقبل يأتي الماضي يطرق بابنا وكأن الماضي هو الشبح الذي نريد الهروب منه.

ثم بعد تفكير عميق لم أستطع تحديد من يفعل معي ذلك، فقد أرهقت نفسيًا فلم أجد أي شيء غير ذكرياتي المخيفة. قمت وذهبت إلى بيتي وأنا في طريقي شعرت بأن أحدًا ما يراقبني من الخلف، فكنت أنظر بطرف عيني، ثم نظرت مسرعًا إلى الخلف حتى أرى من هو فلم أجد شيئًا، من الواضح أنني أصبحت مشتتًا ذهنيًا من وقت الاتصال الذي أتاني. ثم وصلت إلى منزلي ودخلت ولم أتحدث مع أحد من أسرتي، وذهبت إلى سريري وظل التفكير يطاردني، ثم جاءت في بالي آلاء، وما توقفت عنده في المرة السابقة وكيف انتهت علاقتنا؛ فعندما عدت إلى القاهرة في الفصل الدراسي الثاني ذهبت إلى الجامعة. وكنت متشوقًا كثيرًا لرؤيتها والحديث معها، وأن ليس باليد حيلة فيما حدث. عندما دخلت رأيتها تجلس في نفس المكان، تقابلت الأعين، وكلما اقتربت منها كنت أشعر بأن شيئًا سيئًا قد حدث معها.

ذهبت نحوها فى توتر وقلق فقلت:

- كيف حالك يا آلاء؟ حاولت أن أتواصل معك ولكن هاتفك كان مغلقًا.

قالت والحزن يملىء وجهها:

- أنا آسفة يا وجدي، كانت لدي بعض الظروف، أنت كيف حالك؟

وتحدثنا، ثم قالت:

- جاءني شخص وأهلي قاموا بالموافقة عليه، ويجب ألا نجلس معًا مرة أخرى، فهذا ليس من حقنا.

عندما قالت هذا الكلام شعرت وكأن قلبي ينخلع من مكانه، شعرت وكأنه تفتت من كثرة الوجع، فالعالم كان يدور من حولي، قمت وذهبت دون أن أرد على هذا الكلام، رجعت إلى السكن وجلست أبكي حتى تورمت عيناي، كيف ستذهب آلاء بكل هذه السهولة! كنت أعشق التراب الذي تمشي عليه، ولكنها في أول عقبة قد تخلت عني! لمن سأحكي مشاكلي وحزني؟

شعرت وقتها أنني لا أريد شيئًا غير الموت، ودخلت في فترة اكتئاب كبيرة حتى إنني كنت أذهب إلى الجامعة في وقت الامتحانات فقط، وعندما انتهيت من دراستي سافرت إلى القرية وقلت لنفسي: «لن أذهب إلى القاهرة مرة أخرى، فكيف سأعيش في القاهرة بدونها»!

أصبحت بائسًا هذه الفترة، حتى قمت بفتح العيادة لكى أحاول استعادة نفسيتي، فكنت محطمًا من الداخل.

«كنت أقاتل من أجله حتى وجدت أنني أنا من قُتل».

***

«حب الحياة»

حب الحياة والتمسك والتعلق بها.

أشعر بعض الأوقات أن الناس يعيشون في الحياة وكأنها أبدية، وكأن الموت شيء بعيد، حتى إنني أشعر بعدم إدراك البشر بمصيبة الموت، وهل لو كل إنسان يعلم يوم وفاته سيكون طبيعيًا كما يعيش في يومه الطبيعي! فللأسف.. لقد انغمس الإنسان في مشاغل الحياة ووهمها ونسي أنه مفارق وليس بباقٍ، فلو وضع كل إنسان في اعتباره أنه راحل عن هذا العالم لم نجد وقتها في مجتمعنا لصًا أو نصابًا أو مرتشيًا.

أشياء كثيرة،

نعم صحيح.. الحياة تصبح في أغلب الأوقات جميلة وتسحبنا إلى أعماقها دون أن نشعر، ولكن يأتي على الإنسان وقتٌ يحب فيه الموت أكثر، ولأن الراحة والسعادة أشياء متغيرة وليست ثابتة فحال الإنسان كل يوم يتغير.

أوقات كثيرة أخاف من الموت، يمكن أن يكون هذا الإحساس نابعًا من خوفي؛ مفارقة ناس أحبهم.. فكل إنسان يخاف أن يترك من يحب وحيدًا في الحياة؛ فالأب يخاف على ولده، والولد يخاف على زوجته، والزوجة تخاف على مفارقة طفلها، والطفل يخاف أن

ينضج دون وجود الأب والأم، فنرى أن أصعب شيٍ في الموت ليس إحساس الميت، ولكن إحساس من حوله؛ ففكرة الفراق هي أشد الأفكار الموجودة بعالمنا، حتى في أي علاقة إنسانية من يقوم بمفارقتنا بكل سهولة هو من يقوم بقتلنا بكل سهولة.

«الفصل السادس»

استيقظت ووجدت نفسي جالسًا كما كنت قبل النوم، بحثت بيدي عن هاتفي، فكانت عيني تصيبها غمامة. فتحت هاتفي وجدت رسالة على «الفيسبوك» من إيميل مجهول يقول: «مش هسيبك يا وجدي»!

وكان يضع على الصورة الشخصية رجل يرتدي شالًا على وجهه وملامحه غير ظاهرة، نفس الشخص الذي رأيته يراقبني!

توترت وأصبح الخوف لا يتركني، فهذا الشخص الذي لم أعرفه قام بتخويفي لدرجة أنني أصبحت أخاف أن أذهب إلى العمل أو أتجول في الشوارع، وأنا جالس أفكر اتصل محمد وقال:

- يا دكتور، الشاب الذي يُسمى عمر جالس ينتظرك.

سألته بأندهاش:

- لماذا أتى؟ فموعده السبت.

رد بتعجب:

- سلامة عقلك يا دكتور، اليوم هو السبت.

فُزعتُ؛ فأنا لم أشعر بمرور الوقت، حتى إنني كنت -حقًا- لم أعرف أن اليوم هو السبت، قمت ولبست وذهبت إلى العيادة دخلت وجدت عمر جالسًا، تحركت نحوه وقلت له بنبرة شديدة:

- ماذا تريد مني يا عمر؟

فاستغرب وقال:

- ماذا حدث يا دكتور؟ أنا لن أفعل شيئًا. إذا كنت لا تريد أن أجلس معك سوف أذهب.

هدأت وقلت:

- أنا آسف يا عمر؛ فأنا أمرُّ ببعض الأمور هذه الفترة؛ لذلك فأنا غير واعٍ لتصرفاتي، تقبل اعتذاري.

وذهبنا إلى غرفة الكشف، وقلت له:

- ماذا فعلت هذا الأسبوع؟

قال:

- حدث معي شيء غريبٌ جدًا يا دكتور، فهناك شخص يراقبني؛ يرتدي شالًا أسود، ووجهه غير واضحٍ.

نظرت إليه واتسعت عيناي من الصدمة، فكان كلامه كالصاعقة التي ضربتني، ثم أكمل كلامه دون أن أوقفه، وقال:

- هذا الشخص يراقبني بعد يومٍ من لقائنا، لا أعرف ماذا يريد؛ فأنا أصبحت خائفًا حتى شككت أنه شخصٌ من معارفي التي كنت أعرفهم أيام تعاطي المخدرات؛ فأنا أخاف من النزول إلى الشارع أو أن أفتح باب شقتي؛ حتى لا ينتظرني بالخارج. لا أعرف ماذا أفعل!

وحين كان «عمر» يتحدث كنت أفكر؛ هل من يفعل ذلك هو عمر ويريد أن يبعد تلك الشبهة عنه أم شخص آخر ويريد أن يقوم بتخويفي أنا ومن يعرفني؟

ثم وأنا أفكر أخذ عمر يلوح بيديه يمينًا وشمالًا امام وجهى، وكان يقول:

- يا دكتور، هل أنت واعٍ لما أقوله؟ أنا أسألك ماذا أفعل!

قلت له:

- أنا آسف يا عمر، فأنا غير قادر على إكمال الجلسة معك اليوم، فأنا لست على ما يرام، سوف أقوم بالاتصال بك عن قريب.

تقبل عمر ما قلت وذهب وجلست أنا أفكر من الشخص الذي يأتي إلي أنا وعمر وماذا يريد، ثم قام محمد بطرق الباب قلت:

- تفضل.

فقال:

- هناك فتاة تريد أن تدخل لحضرتك.

قلت له:

- لا أريد التحدث مع أحد اليوم.

رد قائلا:

- هى لا تريد أن تذهب إلا بعد مقابلتك.

فقلت له بعد ان نفذ صبرى:

- أدخِلها.

ثم حدث ما لم أتوقعه في حياتي فقد كانت علياء؛ الفتاة التي أحبتني كثيرًا وكنتُ لا أبادلها نفس المشاعر؛ وذلك لوجود آلاء ذلك الوقت في حياتي، وكنت أعيش في القرية في العطلات فقط، كنت لا أراها إلا قليلًا.

قمت وقلت لها:

- تفضلي يا علياء، كيف حالك؟ وماذا تفعلين الآن في حياتك؟

قالت والفرحه على وجهها:

- أنا بخير، قد علمت أنك قمت بفتح عيادة فجئت لأبارك لك على هذه الخطوة وفرحت أنك فعلت ما كنت تريده.

كنت أرى في وجهها وهي تتحدث الحب الذي لم ينتهِ، فعندما جلَستْ معي كانت عيناها تلمع، فهي كانت تحبني وتحارب حتى تكون معي، وكنت أقوم بصدها عن ذلك، وقد فعلت الكثير من المشاكل بسبب هذا الموضوع، فهي تعمل في الصيدلية التي تسبقنا بشارعين، وكانت تحكي للجميع أنها تحبني، وبيننا علاقة. وفي يوم، صديقة أمي أوقفتها وقالت إنها سمعت عن هذا الموضوع، فجاءت أمي وقتها وتكلمت معي، وكانت تفكر أننا على علاقة؛ فقمت وقتها بالذهاب إليها في الصيدلية، وانفعلت عليها وقلت لها إنني لا أفكر في هذا، وحين كنت أحدثها كانت تبكي ولكن ماذا أفعل حينها! فأنا لا أحبها ولا أريد أن أظلمها معي. من وقتها قامت بالابتعاد عني

وأصبحت لا تحدثني فحين رأيتها اليوم تذكرت كل هذا، ثم قامت واستأذنت بعدها.

قمت أنا وذهبت إلى مكتبة عم «يحيى»، وهي مكتبة تم فتحها منذ زمن الاحتلال، فهي ترجع إلى التراث القديم، ويوجد بها الكثير من الكتب الثقافية والقصص والروايات. أردت أن يتشتت تفكيري عن هذا الموضوع الذي أصبح يرعبني طوال الوقت؛ فأنا من الأشخاص المحبين للقراءة.

ذهبت إلى هناك ووجدت «ياسين» ابن عم يحيى، فهو كان صديقي منذ أيام الثانوية، احتضنته وجلسنا نتذكَّر بعض المواقف والذكريات التي مرَّ عليها الزمن، ولكنها محفورة في عقولنا. ونحن جالسون سمعنا صوت صراخ، قمنا مسرعين لنرى ماذا يحدث، وجدنا الناس تتجه لبيت عم «فؤاد»؛ فأسرعنا إلى هناك، فرأيت منظرًا كنت لا أتوقعه في حياتي، فقد قامت إحدى ساكنات العمارة بقتل زوجها، وكانت والدته تصرخ؛ فهي تسكن بالشقة الأمامية لهم، سألت أحد الجيران:

- ماذا حدث؟

قال:

- لقد تشاجر هو وزوجته، دخلت إلى المطبخ وأتت بالسكين وغرزتها في قلبه، فأخذ يزحف إلى شقة والدته ومات بين يديها.

أخذت أسأل نفسي: «أي سبب يجعل زوجة تقوم بقتل زوجها حتى ولو كانت أسباب الدنيا بأكملها موجودة؟ من يمتلك قلبًا لفعل ذلك؟ هل أصبح الناس لا يتحملون بعضهم لهذه الدرجة»؟

***

كنت غير مستوعب الموقف الذي أراه، ولكني كنت أريد أن أعرف ماذا فعل الزوج حتى تقوم زوجته بقتله، ذهبت مسرعًا إلى مخفر الشرطة، فقد أخذوها في وقتها بعد أن قام أحد الجيران بالإبلاغ عنها في الحال، حين دخلت وجدت «إسلام» صديقي فاحتضنته وسألته ماذا يفعل هنا، فقال إنه أصبح شرطيًا؛ فطلبت منه أن يجعلني أرى الفتاة التي قامت بقتل زوجها لبضعة دقائق فقط. رفض في بداية الأمر حتى قمت بالإلحاح عليه إلى أن وافق وقام بإدخالي إلى زنزانتها، وقال:

- خذ حذرك.

عندما دخلت كنت أرى فتاة جميلة تبكي، كيف لهذه الملاك أن تكون قاتلة!

قلت لها:

- هل يمكن أن أتحدث معك قليلًا؟

قالت وهي تنهج وتبكي:

- هو من اضطرني إلى فعل ذلك؛ لم أرد قتله، ولكنه بدأ يستفزني حتى فعلت ذلك!

نظرت اليها وقولت:

- اهدئي، وأخبريني عن كل شيء حتى أتمكن من مساعدتك.

أعطيتها منديلًا، مسحت دموعها وبدأت تتحدث فقالت إنهما تزوجا منذ أربع سنوات، وكانا يحبان بعضها كثيرًا، وكانت تتحمل معه كل مصاعب الحياة؛ فهي لا تشتكي من أي شيء، وعلى الرغم من تدخل والدته في حياتهم، فكانت تسير أمورهم بشكل جيد ولا تفتعل المشاكل، ولكن منذ سنة اكتشفت أن زوجها يخونها، وقامت بمواجهته عدة مرات، ولكنه كان يتهرب ويعدها بأنه سوف يتغير، ولكن من بداخله طبع الخيانة لا يتغير مهما حدث.

وفي ليلة أمس، قد جاءها اتصال من فتاة، وقالت إن زوجها يخونها معها، فحين أتى من الخارج تشاجرا ثم ذهبا إلى النوم، ولكن عندما قاما تشاجرا مرة أخرى، وحدث ما حدث وأصبحت تبكي وتقول: «كنت لا أريد قتله، لا أريد قتله».

قلت لها بأسف:

- مهما حدث فهذا ليس مبررًا لارتكاب جريمة كهذه، يجب أن تعاقبي على فعلك.

ثم دخل إسلام، وقال:

- هذا يكفي.

شكرته على ما فعله، وخرجت.

حين كنت أمام مخفر الشرطة جاءني اتصالٌ من رقم غير مسجل على الهاتف، أجبته فسمعت نفس الصوت الذي قام بتهديدي يقول:

- يومًا ما ستدخل هذا المكان.

فنظرت حولي مسرعًا، وجدت نفس الشخص الذي رأيته يضع شالًا واقفًا في الأرض أمام المخفر، ولكن بعيدًا، حينها قلت: «يجب أن أعرف من هو»، جريت نحو الأرض وأخذ يجري ويبتعد عني كثيرًا ولكني أريد أن أعرف من هو. جريتُ حتى خرجت على الشارع العمومي، وقامت عربية بصدمي، فوقعت فاختفى من أمام نظري ونزل من في السيارة، وكنت أنظر إليه ولكني غير واعٍ؛ فكانت دماغي تنزف، ثم أصبحت الدنيا سوداء، فوقعت حتى فتحت عيني، وجدت نفسي بالمستشفى.

«الفصل السابع»

حين استيقظت وأنا بالمستشفى جاء الدكتور وقال إنني أصبحت بخير، وكتب لي بالخروج وعندما خرجت أتت سيارة ونزل منها مجموعة من الأشخاص وقاموا باختطافي ووضعوا قطعة من القماش الأسود على عيني حتى وصلت إلى مكان واتضح لي من الصوت أنها منطقة خالية، قاموا بفتح الباب وأدخلوني، ثم وضعوني على كرسيٍّ وربطوا يدي، وبعدها جاء شخصٌ من الواضح أنه رئيس هذه العصابة.

قام بفك القماشة السوداء من على عيني، كانت المفاجأة بالنسبة إلي أنه الرجل الذي يضع الشال الأسود، ولا يوجد غيره بالمكان ووجهه غير ظاهرٍ.

قلت:

- ماذا تريد؟ أنت تهددني منذ فترة ولا أعرف من تكون. هل تريد قتلي؟ ماذا فعلت لك لكي تفعل بي كل هذا!

ضحك وقال:

- لا أريد منك شيئًا يا وجدي كل ما أتمناه هو أن أراك تتعذب أكثر وأكثر حتى تعرف حقيقتك وتعرف أنك لا تساوي شيئًا، وأما

بالنسبة إلى الخطوة التي اتخذتها سوف تفشل بها؛ لأنك إنسان فاشل، وتأذي كل من حولك حتى نفسك.

قلت بنبره غاضبه:

- أنا لم أؤذِ أحدًا طوال حياتي.

رد بأستهزاء:

- هذه أوهام وأنت تقنع نفسك بها، لقد قمت بأذية أسرتك وعلياء وآلاء، وصديقك خالد الذي قمت بخراب مستقبله.

هل تتذكر خالد أم نسيته؟ من الواضح أنك نسيت ولكن أنا سوف أذكرك.

تتذكر يا وجدي عندما جاءك خالد وطلب منك أن تكون بجانبه لأنه مقبل على سفر للخارج، وجاءته فرصة للدراسة في دولة أجنبية، وأنت عندما علمت بذلك ملأت الغيرة قلبك، وقمت بوضع كيس من المخدرات في حقيبة السفر، وقامت حكومة المطار بحبسه؟ هل نسيت أنك كنت السبب في ضياع مستقبلِ شابٍ كان ذنبه الوحيد أنه صديقك؟ كيف يأتي لك نوم كل يوم وأنت متسبب في هدم حياة شخص بريء، حتى علياء الفتاة التي أحبتك تركتها وكنت متعجرفًا معها من أجل الفتاة التى تركتك، يجب أن تعاقب على كل هذا يا وجدي.

رددت بإندهاش:

- كيف تعرف كل هؤلاء!

أخذ يضحك وانفعلت بصوت عالٍ:
- توقف عن فعل ذلك وجاوبني!
قال:
- سوف أجيبك ولكن بعد قليل، ثم ذهب وجلست أنادي عليه وهو لا يرد.
سألت نفسى: «من يكون هذا المجنون وماذا سيحدث معي بعد قليل؟ هل من أرسله هو خالد أم هو خالد ويضع شيئًا على وجهه؟ ولكن هو لا يعرف عن علياء وآلاء»؟
ثم جاء مرة أخرى فقلت:
- من أنت ومن أدلك على كل هذه المعلومات؟
قال:
- أنا حقيقتك التي تهرب منها، أنا الذي لم أتركك حتى آخذ حق كل من فعلت بهم ذلك!
قلت بنبرة خوف وصوت عالٍ:
- أنا لم أفعل شيئًا، لم أفعل شيئًا.. من فضلك اتركني أخرج من هنا.
فتركني مرة أخرى، أخذت أنادي:
- لا تتركني وتذهب أريد الخروج من هنا!
ثم وجدت قطعة من الحديد تقع على الأرض، وقعت بالكرسي وأخذت أحاول ألتقطها. وبعد أن مسكتها قمت بفك يدي، وكنت

أحاول الخروج من هذا المكان اللعين. وأنا أفعل ذلك جاء رجلٌ من خلفي وقام بضربي على رأسي، ففقدت وعيي ثم فتحت عيني ووجدتني في المستشفى وحولي أمي وإخوتي؛ قلت لهم:

- من أتى بي إلى هنا؟

قالت أمي:

- اهدأ يا ولدي.

وبدأ ينادي أخي على الدكتور، أتى مسرعًا وقال:

- اهدأ، أنت بخير، صدمتك سيارة ودخلت في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام.

توسعت عيناي من الصدمة وقلت:

- ماذا تقول؟ أنا خرجت من المستشفى وخطفتني مجموعة من الأشخاص.

قالت أمي:

- اهدأ يا ولدي؛ فأنت من وقت الحادثة لم تتحرك من مكانك.

أصبح العالم يدور من حولي وأسأل نفسي: «ماذا يقولون؟ هل كل ما كنت فيه كان حلمًا! هل كنت أتوهم؟ من الواضح أن ذلك الرجل الذي يهددني قد أوصلني إلى مرحلة الجنون»!

قال الدكتور:

- سوف نتركه لبضعة ساعات حتى يتحسن وسنخرجه.

***

جلست ساكتًا لا أنطق بأي كلام؛ فأنا غير مستوعبٍ ماذا يحدث معي. ثم قاموا بإخراجي ووصلوا بي إلى المنزل ودخلت إلى غرفتي وقلت لهم أن يتركوني آخذ راحتي، وجلست على سريري وقمت بفتح «الفيسبوك» لأبحث عن الإيميل الذي أرسل الرسالة منذ يومين.. لقد قام بحظري حتى لا أراه مرة أخرى؛ فمن هو ذلك الرجل؟ هل أنا لم يخطفني أحد وكنت في حلم! ولو حقيقة كيف لهذا الرجل أن يعرف كل هذه المعلومات بسهولة؟

أصبحت نفسيتي هشة ومنكسرة

حين كنت أبحث عن الإيميل وجدت جريمة القتل التي حدثت قبل الحادثة، وما صدمني أنها كانت من ثلاثة أيام أصبحت أتأكد أنني كنت في حلم.

وحين كنت أقرأ وجدت إيميل الزوج؛ فدخلت لأرى ماذا كان يكتب، فمن الغريب الذي رأيته أنه يتغزل بزوجته ويقول إنه يحبها كثيرًا وهي قامت بالرد عليه في التعليقات بأنها تعشقه؛ فلم كل هذا الحب الدرامي على عالم السوشيال ميديا؟ وفي الواقع يعيشون عكس هذه المشاعر.

فمنذ دخول هذا العالم الافتراضي على بيوتنا أصبحنا أشخاصًا مزيفين؛ فلا تجد أحدًا على حقيقته، فكل شخص يعيش في هذا العالم عكس ما يعيشه في الواقع.

أصبحنا مثل الألعاب، مجموعة من المواقع تتلاعب بمشاعرنا، فهي قادرة على إسعادنا وقادرة على هدمنا؛ لأننا لا نقدر على

العيش بدونها، حتى مشاعرنا أصبحنا نرسلها على المحادثات ولا نعبر عنها، فكلنا نرتدي الأقنعة، فهذا العالم أصبح مليئًا بالكذب والنفاق، أتمنى لو كنت ولدت في قرن غير هذا؛ حيث كان الناس واقعيين أكثر من ذلك، أتمنى أن أكون في حلم.

«الفصل الثامن»

استيقظت على صوت أمي وهي تقول:

- استيقظ يا حبيبي، قد أحضرت لك الفطور.

قمت وقبلت يدها وقلت لها إنني سوف أذهب إلى العيادة اليوم.

اعترضت وقالت:

- لا تذهب وأنت مريض.

قبلت يديها وقولت:

- إنني بخير، ولا أريد الجلوس في المنزل.

قمت وذهبت إلى العيادة، استقبلني محمد بالحضن وقال:

- كنت أريد آتي إليك يا دكتور، ولكن كنت أفتح العيادة حتى لا تحزن.

قلت له إنني بخير وسعيد من فعله هذا، ثم تركته ودخلت إلى مكتبي وقلت له:

- أحضر فنجان قهوة.

أحضر القهوة وقال:

- إن مريضًا قام بقطع كشف.

قلت له:

- أدخله.

كان رجلًا يبدو عليه كبر السن، فهو يستند على عكاز، قمت بسؤاله جميع الأسئلة الطبيعية.

قال:

- عبد الرحيم السعدني، ٦٨ عامًا، لا أعمل، أنا الآن على المعاش وأعيش فوق سطح منزل، متزوج ولدي أبناء ولكن لا يعيشون معي؛ حيث إن كل واحد منهم متزوج وله حياته الخاصة.

قلت:

- أنا آسف في السؤال، ولكن لماذا أتيت إلى هنا؟ فأنا أستغرب من ذلك.

فقال:

- أحتاج إلى أن أحكي يا ولدي، أريد أن يسمعني أحد، لم أجد من يستمع إليَّ فعرفت بوجود طبيب نفسي في القرية، فجئت كي أخرج كل شيء بداخلي.

أولادي الذين عشت حياتي كلها من أجلهم أرسلوني إلى داررعاية، ورموني حتى لا أكون عبئًا عليهم، فكل ما يعيشون فيه من خيري ولكن تقلبات الزمن يا ولدي، قد أصبح أبناء هذا الجيل لا يعرفون قيمة الأب والأم في حياتهم أصبحوا يتسارعون في الدنيا من أجل السلطة والمال نسوا الحب والرحمة، فمن تصنع له الخير يصنع لك الشر، أوقات أسأل نفسي: «ماذا فعلت في حياتي حتى يرزقني الله بهؤلاء الأبناء؟ كيف يأتي لقلب بني آدم أن يترك والده

في دار رعاية ولا يسأل عنه؟ كيف وصل بنا الحال إلى هنا؟ كل ما كنت أريده منهم هو أن يكونوا بجانبي في نهاية عمري، لا أريد المال ولا أي شيء غير وجودهم؛ فأنا كنت أجمع المال من أجلهم. وثقت في ابني الأكبر ووكلته بكل شيء أمتلكه فقام بالتصرف في الأملاك هو وإخوته ثم قاموا بزجّي في الشارع. أسوأ شعور أن تثق في شخص ويخيب ظنك؛ خاصة لو كان ابنك الذي لحمه من لحمك ودمه من دمك. من الممكن أن أكون أنا من أهملت في تربيتهم ففعلوا بي هذا أو أن هذا ابتلاء من الله ليختبر صبري فأنا لا أعترض، ولكن كل ما أريده هو أن يكونوا بجانبي ولو لبضعة دقائق قبل وفاتي، فعلى الرغم من كل ما فعلوه إلا أنني ما زلت أحبهم، ليس لدي أي كلام آخر يا ولدي.

قلت له:

- لا تحزن عليهم فهؤلاء الأبناء لا يستحقونك ولا يستحقون كل هذا الحب، أنا أعرف أن هذا الإحساس صعب، ولكن يجب عليك التقبل، وفهم أنهم يفعلون ذلك لأن قلوبهم يمتلكها حب المال وكل شيء دنيوي؛ فلا أحد قادر على نزع ما في داخلهم، ثم قمت وأخذته في حضني وقلت له: «أنا ابنك يا والدي وسأنتظرك أن تأتي وتجلس معي دائمًا».

ثم ناديت على محمد وقلت له أن يعطيه مبلغ الكشف الذي دفعه.

قال:
- لا، هذا حقك.
فبتسمت وقلت:
- لا تقل ذلك، أنت مثل أبي.
شكرني ثم قام وذهب، حين كان يتكلم ذلك الرجل ذكرني بوالدي ورغم ما فعله معنا إلا أنني أريد أن أراه.
وبالفعل قلت لمحمد أن يغلق العيادة وذهبت إلى البيت الذي يسكن فيه، وأخذت أسأل حتى دلني شخصٌ على المكان الذي قام بوصفه «عم عبده»، دخلت إلى العمارة وصعدت إلى الدور الأخير وقمت بالطرق على الباب حتى فتح. كان مصدومًا في بداية الأمر ولكن بعدها قام بضمي إلى حضنه، لكنني قمت بإبعاده عني؛ فرأيت على وجهه تعبيرات حزن لما فعلته، ثم قام بتغيير الموقف وقال:
- سوف أحضر لك كوبًا من الشاي. تفضل اجلس هنا.
***
كان يسكن في غرفة على سطح العمارة، وكان تملؤها خيوط العنكبوت من كل الاتجاهات، ولا يوجد بها إلا القليل من الأشياء، من الواضح أن حاله أصبح صعبًا جدًا، ثم جاء وقال:
- غريبة يا وجدي أن تأتي إلي بعد كل هذا العمر.
قلت بنبره هادئه:

- أحتاج إلى أن أتحدث معك في الكثير من الأمور، لماذا فعلت بنا ذلك؟ جعلتني أعيش حياتي كلها أفتقد شعورًا بوجود الأب! كيف لم يأتِ ببالك أبنائك في يومٍ من الأيام؟ كيف ترضى عن حالك؟ وما فعلت بنا! أنت ظلمتنا وظلمت أمي التي كانت تعيش معك على كل حال. لماذا كل هذا الجحود بداخلك؟

حين كنت أقول هذا الكلام كانت دموعي تتساقط ولا أتمالك أعصابي، قلت له:

- أنا لا أعرف حتى وقتنا الحالي أن أنطق كلمة «أبي»، تعرف أنك لو ميت سيكون أرحم لنا من أن تعيش مثلك مثل الغريب، أنت جعلتني أخاف من الزواج حتى لا أظلم أولادي معي مثل ما فعلت؛ حتى لا يكرهونني كما نكرهك، أنت جعلتني مكسورًا طوال حياتي، حتى أمي تركتها وجعلتها لا تدري ماذا تفعل في تربيتنا.. ولكن رزقنا الله بأم قامت بالدورين؛ فهي تعني لي أمي وأبي وكل شيء، أما أنت فأنا أكرهك من كل أعماق قلبي.

بدأ يبكي أمامي واضعًا عينيه في الأرض ثم قال:

- لا تقل هذا الكلام يا ولدي أنا أعرف أنني ظلمتكم كثيرًا وقصرت في حقكم، ولكن أنا أحبكم.

قلت بأنفعال:

- لا تقل أحبك! أنت لا تحب إلا نفسك، أنت أناني وستعيش وتموت على هذا الوضع.

رد بنبره حزن شديده:

- لن أقوم بمنعك مما تقول؛ فلك الحق في كل ما تقول، ولكن يجب عليك أن تسامحني، أنا أعرف أنك تتميز يا وجدي بالطيبة والقلب الصافي.

قلت له بغضب:

- أنت لا تعرف أي شيء.

ابتسم وقال:

- أنت حر يا وجدي في كل ما تريده؛ فأنا لم أقم بإجبارك على حبي؛ لقد كبرت وأصبحت تفهم كل شيء، ولكن يجب عليك معرفة القصة كاملة وليس جزء منها.

قلت له:

- ماذا تقصد بقول فهم الحقيقة كاملة! أنا أعرف كل شيء.

رد بنظره شارده:

- ليست الحقيقة الكاملة أني تركتكم وذهبت، ولكن هناك أسباب لهذا.

قلت باستغراب:

- ماذا تقول؟ أي أسباب!

حكى وقال:

- حين جئت لأطلب يد والدتك كان خالك سامح لا يحبني ولا يريد أن أتزوج من أمك، ولكن وقتها قامت والدتك بالموافقة وتمت

خطبتنا لسنة، وكان خالك يحارب ويحاول إنهاء هذه العلاقة؛ وذلك لكوني وقتها كنت أمتلك شركة سياحة وكان حالي ميسورًا. كان خالك يغار مني، أصبحت أتفوق في مجالي حتى تعرفت على مجموعة من الأصدقاء، وليتني ما فعلت ذلك؛ فكانوا صحبة سوء؛ حيث جعلوني أقوم بالنصب على الناس وابتعدت عن الطريق الذي كنت أسلكه، وبدأت من هنا المشاكل تتوالى يومًا بعد يوم؛ فقد كنت آخذ الأموال من الناس وأقوم بالنصب عليهم، ووقتها لم أقتصر فقط على المساكين، بل قمت في يوم بالنصب على شخصية مرموقة بالدولة؛ حيث زورت بعض الأوراق وكنت قد أخذت جزءًا من المبلغ، قام بإبلاغ الشرطة وأخذوني من الشارع وتم الحكم مدة ١٠ سنوات، ولم تتحمل والدتك؛ حيث قام خالك بإجبارها على طلب الانفصال وأنا لم أرفض ما تريد، وذلك لكوني قد أذيتها كثيرًا، ثم بعدها اختفيت من حياتكم تمامًا، وقامت والدتك وقتها بإخفاء الأمرعنكم لكونها تخاف على مشاعركم، وقد قالت للقرية بأكملها وقتها بعدم إخباركم. بالتأكيد احترم أهل القرية هذا، فبعدي عنكم يا ولدي كان خوفًا عليكم حتى لا تصبحون مثلي، فأنا أفسدت حياتي بنفسي وكنت لا أريد إفساد حياتكم، أنا أدرك أن ما فعلته خطأ كبيرًا، وكنت -حقًا- أنانيًا كما قلت، ولكن بعد خروجي من السجن تغيرت وابتعدت عن كل شيء يربطني بالماضي، ويجب أن تعرف أن الله

عاقبني حتى بعد خروجي من السجن؛ فقد تزوجت امرأة قامت بسرقتي وهربت وتركت فتاة صغيرة، وقمت أنا بتربيتها.

طرق الباب وهو يتحدث وقام لكي يفتح، كانت الفتاة التي حدثني عنها قال:

- ادخلي يا فاتن، هذا أخوك وليس شخصًا غريبًا.

قمت أنا بفعل شيء غريب غير متوقع، أخذتها في حضني.

فرأيت في هذه اللحظة عينيه تضحك، فلست أعاملها بذنب والدها؛ فهي في الأول والآخر أختي ولا يوجد مفر من ذلك. تحدثت معها قليلًا وقلت له:

- سوف أذهب.

فقال لى:

- أرجو أن تسامحني يا وجدي، لقد تغيرت.

نظرت إليه وقلت:

- قم بالاعتناء بنفسك.

ثم بعد خروجي قام بالنداء وقال:

- عندي طلب!

قلت له بأستغراب:

- تفضل.

قال:

- أريد أن آتي إليك لأرى العيادة.

قمت بهز رأسي وتركته ونزلت، وأنا أمشي في الطريق كانت دموعي تتساقط لما فعلته معه، فعلى الرغم من كل ما فعله معي، عندما رأيته كنت أريد أن أخذه في حضني، ولكن هو من فعل هذا الجفاء بداخلنا، أصبحت تائهًا لا أعرف ماذا يحدث معي في حياتي، لا أقدر على اتخاذ أي قرار، حتى العيادة أصبحت لا أطيق أن أذهب هناك، ذهبت إلى قريتنا وأنا أتجول وجدت مجموعة من أصدقائي يجلسون على المقهى التي تتواجد علي مقتبل القرية، قاموا بالنداء.. ذهبت إليهم وأصروا على أن أجلس معهم، تذكرنا كل شيء مر علينا بأيام الدراسة، وما أعظم وجود الصحبة الجميلة بجانبك. أتمنى لو يعود بنا الزمن؛ حيث كانت قلوبنا صافية لا نحمل حقدًا ولا نفاقًا، كنا نعيش دون أن يكون لدنيا أي هدف في الحياة، ولكن عندما كبرت أدركت أن الإنسان مع مرور الوقت يظلم ويصبح باهتًا ويتغير كل شيء من حوله، ويبدأ في المحاربة من أجل البقاء في هذه الحياة؛ فهي لا تحب الضعفاء وأتذكر قولًا لجدي: «يا وجدي، عندما تريد أن تعرف معدن البني آدم ضعه في الصعاب؛ فهذا أكثر وقت قادر على إخراج كل ما بداخل أي بني آدم»

قطع عاطف تفكيرى وهو يقول:

- هل تعرفون أحوال خالد؟ لقد عرفت أنه خرج من السجن من بضعة أيام.

تغيرت ملامحي وتفكيري أصبح مشتتًا أكثر من الأول؛ هل خالد هو من يفعل معي ذلك؟ وعاد لينتقم لما فعلته معه!

قال عاطف:

- ماذا بك يا وجدي؟ فقد خطف وجهك عندما أتيت بسيرة خالد!

قولت له في تلعثم:

-لا يوجد شيء، سوف أستأذن لوجود بعض الأشياء التي يجب أن أحضرها.

فنادى عليا وقال:

- لماذا؟ فأنت جالس معنا.

اعتذرت إليهم، وتركتهم وأصبح الخوف يتملكني أكثر من الأول، قلت لنفسي: «من المؤكد أن خالدًا لن يتنازل عن حقه، وسوف يقوم بالانتقام؛ فيجب عليَّ أخذ الحذر الفترة القادمة».

***

ذهبت إلى المنزل بعدها فوجدت أمي تجلس بمفردها على الأرض، وتقوم بقطف أوراق الملوخية؛ فأمي لا يوجد مثلها في تحضير الطعام، قمت بتقبيلها وقلت:

- أريد التحدث معك قليلًا يا أمي، فلا أجد من أتحدث وأشكي له ما يحدث معي.

قالت:

- قل يا ضنايا.

وتركت ما كانت تفعله لتنصت إليَّ، قمت أنا بوضع رأسي علي قدميها كعادتي منذ طفولتي، فكنت أحب أن أفعل تلك العادة، وكانت تقوم بتحريك إصبعها على شعري حتى أنام، جلست أحكي لها عن كل ما حدث في الفترة السابقة، والشخص الذي يقوم بمطاردتي.

وجدت القلق يتملك وجهها ثم قالت:

- من يحب أن يؤذيك بهذا الشكل غير شخص يغير منك أو أذيته في شيء!

فقولت فى تعجب:

- لا أعرف يا أمي، فهو لا يتركني ويظل يراقبني في كل مكان أذهب إليه، ثم قلت لها إنني ذهبت إلى أبي.

قامت بالانفعال عليَّ وقالت:

- لماذا يا وجدي؟ نحن قمنا بإنهاء هذا الموضوع منذ زمن.

قلت لها:

- لماذا يا أمي كنت تخفين عنا الحقيقة؟

قالت بتوتر:

- ماذا تقصد؟

فأجبتها قائلا:

- لقد قال أبي كل شيء، فقد أجابني على كل الأسئلة التي أبحث عنها منذ سنين، ولكن كل ما أريد معرفته لماذا كان خالي يكرهه

لهذه الدرجة؛ لأنني أعرف أن أبي لم يخبرني بالحقيقة كاملة ويخفي عني جزءًا من القصة!

وجدت أمي تتهته بالكلمات وتريد تغيير الموضوع فأكملت حديثي لها قائلا:

- أنا أصبحت كبيرًا، لا تحاولي أن تهربي من الأسئلة لأني لن أتركك حتى أعرف كل الحقيقة.

قالت:

- عندما جاءني والدك لطلب يدي كان بينه وبين خالك أعمال، ولكنها غير مشروعة، كنت لا أعرف. وفي يوم قام أخي بدعوة والدك في بيت جدك على الغداء، ويومها قد رآني والدك وأعجب بي وطلب يدي من خالك ولكنه رفض؛ لأنه كان يعرف عنه كل شيء ولا يريدني مع هذا الشخص، ولكن ذهب أبوك إلى جدك دون علم أخي وطلب يدي وجدك قبل، وكان خالك لا يقدر على الإفصاح بأي شيء لجدك حتى لا يقوم والدك بفضحه.. ومن هنا بدأت الحرب بينهما، وتحولت صداقتهما إلى عداوة، وعندما دخل والدك السجن استغل أخي الفرصة وقام بإجباري على الانفصال، وصراحة حتى لو كان خالك لم يطلب ذلك كنت سأفعل؛ لأن والدك وقتها تمادى في ارتكاب الأخطاء، وأصبح يعمل في جميع الأعمال المشبوهة، وعندما كنت أواجهه كان ينفعل ويترك البيت؛ فقمت باستغلال هذا الموقف وتركته؛ ولذلك قمت بإخفاء

الموضوع عنكم حتى لا تتأثروا نفسيًا؛ فأنا كل ما أريده في هذه الحياة هو أن أراكم سعداءً وفي أحسن حال، ولكن يوجد لدي طلب أريدك ألا تخبر إخوتك عن هذه الأشياء.

قلت:

- لا يا أمي لن أخبر أحدًا، وأنا ليست حزينًا؛ فأنا في قمة سعادتي أن الله رزقني بأم مثلك.

وقبلت يديها وتركتها وذهبت لأجلس بالأرض وأخذت أفكر عما يحدث معي في الأيام السابقة، وما تركته في نفسيتي؛ فأنا حقًا لست على ما يرام، كل شيء يأتي دون ترتيب، حتى عيادتي أصبحت لا أطيق أن أذهب إليها، فقد أرهقتني الوحدة القاتلة التي أعيش بها؛ حيث أصبحت مقتنعًا بمقولة: «الوحدة رمال متحركة، زوارها قليلون، مختلفو الوجهة»؛ لذلك هي لا تترك مجالًا للثرثرة، هي فقط تبتلعهم.

فأنا منذ صغري عندما أريد الهروب من هذا العالم المريض أقوم بالجلوس وحيدًا وأقوم بوضع سماعات الأذن وأبدأ في سماع الموسيقى؛ فهي حالة غريبة وعجيبة تقوم بخطف البني آدم وتجعله يغرق في معانيها، وحين كنت جالسًا جاءني اتصال من رقم غريب، كنت أشك أنه الشخص المجنون الذي يهددني؛ قمت بالرد، وجدت صوت امرأة تقول إنها جارتي «أم ياسمين»، وأن

ابنتها قامت بالانتحار، وقد أنقذوها في آخر دقيقة، وكانت تريد مني أن أتحدث مع ابنتها.

ذهبت؛ فلا يمكنني أن أرفض؛ وذلك بحكم الجيرة التي بيننا، عندما دخلت شعرت بعدم ارتياح.

دخلت إلى ياسمين وقلت:

- أريد الجلوس معها بمفردي. كيف حالك يا ياسمين؟ لقد تغيرتِ كثيرًا عن الماضي.

نظرت بوجه منكسر، وقالت:

- كما ترى؛ فأنا لست بخير.

فقلت لها بتمعن:

- وأنا أريد أن أسمعك، أخرجي كل ما بداخلك.

قالت بخوف:

- إذا تكلمت سوف يقوم أبي بقتلي؛ حتى أمي قامت باستدعائك دون أن يعرف.

قلت لها:

- اهدأي واحكي كل ما يحدث هنا؛ لا يقدر أحد على أذيتك؛ فأنا سأكون بجانبك في أي وقت.

قالت:

- والدي يقوم بضربي وإهانتي على أبسط الأمور، ويفعل هذا أيضًا مع أمي وأخي؛ مما جعلني أفكر في الانتحار، فقد كرهت حياتي..

حتى أخي ترك المنزل منذ شهرين ولم نعرف عنه شيئًا، فأبي إنسان مريضٌ يريد أن يخرج كل ما حدث له في الصغر علينا؛ حيث كان يقوم جدي بتعذيبه وحبسه في غرفة مظلمة فأصبح يفعل معنا نفس الأشياء.

عندما يراني أتحدث في الهاتف يقول إنني أتحدث مع شباب ويبدأ في ضربي دون أن يتأكد من ذلك، حتى أخي ترك المنزل بسبب أنه يتهمه بشرب المخدرات؛ لأنه يسهر مع أصدقائه، وأمي لم تسلم من يده هي الأخرى؛ فهو لا يثق بها ويشك في كل شيء تفعله، فنحن نعيش في سجن وليس في حياة.

ومنذ أسبوع قام بضربي بشدة، وكنت سأموت في يده، وكل هذا بسبب أنني طلبت الخروج مع صديقتي.. لقد تعبت يا وجدي ولا يوجد حل لهذا.

قلت لها بأستعطاف:

- لا أعرف ماذا أقول لكِ، أنا أقدر كل ما تقولين، ومن الواضح أن والدك معقدٌ نفسيًا وغير متزن؛ حيث كان يحدث معه أشياء في الماضي، قامت بتشويه نفسيته ولكن إياك أن تفكري في فكرة الانتحار مرة أخرى؛ فكل إنسان يجب أن يصبر على ابتلاء الله له، فليس كل مشكلة تحدث معنا حلها الموت؛ يجب علينا المقاومة والاجتهاد في مستقبلنا، فأنا أريد منك أن تركزي في دراستك وتحاولي أن تبتعدي عنه بكل الطرق؛ فمثلًا عندما يكون في المنزل

لا تتحدثي في الهاتف، وعندما يناقشك في شيء قولي: «حاضر» دون أن تجادليه.. بالمعنى الصحيح تجنبي كل ما يؤذيكِ، وأنا سأحاول أن أتواصل معك طوال الوقت، وأريد منك أن تأتي إلى العيادة كل فترة لنتحدث عما يحدث معك.

قالت:

- سوف أفعل كل ما قلت، وأشكرك على وقوفك بجانبي.

فبتسمت وقولت:

- أنتِ مثل أختي لا شكر فهذا واجب عليّ، سوف أستأذن حتى لا يأتي والدك ويعرف أننا نتحدث في شيء.

قمت وذهبت إلى منزلي، وتلقيت خبرًا سعيدًا؛ فقد حصلنا على الأرض التي أخذها خالي، وقال أخي إننا سوف نستلمها في أول الشهر القادم، فرحت كثيرًا ولكني كنت أقلق من ردِّ فعل خالي؛ فهو ظل سنينًا يحارب على هذه الأرض، فليس من السهل التنازل عنها، كنت أخاف مما سنمر به الفترة القادمة؛ وخاصة أنني أواجه الكثير من المصاعب هذه الفترة؛ فلست قادرًا على مواجهة مشكلة أخرى.

ثم بعدها تركتهم ودخلت إلى غرفتي، وقمت بفتح هاتفي، فوجدت رسالة على الإيميل الخاص بي، فقد دُعوت إلى ندوة طبية في الشهر القادم ومقرها القاهرة، حين رأيت اسم القاهرة أدركت أن آلاء ستكون هناك، كنت مترددًا؛ ماذا أفعل؟ فأنا لا أريد أن أتذكر

هذا الموضوع مرة أخرى. ومن الجهة الأخرى أريد أن أغير هذه الحياة المتكررة التي أعيش بها، وحين كنت أفكر رن هاتفي، تلقيت تهديدًا مرة أخرى، ولكن هذه المرة يقول إنني لو ذهبت إلى القاهرة سوف يلاحقني ولن يتركني أستمتع بحياتي.

قلت بانفعال وصوت عالٍ:

- كيف عرفت بأني سأذهب إلى القاهرة؟ هل تراقبني؟ ومن أنت حتى تعرف كل هذا؟

قام بالردّ ثم بعدهاَ أغلق الهاتف وتركني أنا تائهٌ لا أدري ماذا أفعل! فأنا أصبحت خائفًا لدرجة غير طبيعية، قمت بوضع رأسي على السرير ودخلت في نومٍ عميق؛ فقد كاد رأسي ينفجر من الوجع.

***

«دائرة الخوف»

إذا كنت تريد أن تقتل إنسانًا؛ فقم بإخافته من كل شيء حوله؛ حيث إن الخوف من أبشع الأحاسيس التي من الممكن أن يصل إليها الإنسان، فنادرًا ما نجد شخصًا لم يعانِ منه؛ سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ومع ذلك يختلف شعوره بالخوف حسب الظروف والأحداث التي يتعرض لها الإنسان؛ فهناك نوعان من الخوف؛ خوف إيجابي، وخوف سلبي. فمثلًا: الخوف الإيجابي مثل خوفك من اقتراب موعد امتحان أو ترتيب أمر في المستقبل، كل هذا خوف يدفع الإنسان إلى التفوق والاجتهاد، ويوجد أيضًا خوف سلبي وهذا خطير جدًا لأنه يؤثر على نفسية الإنسان ويجعله مشتتًا وغير قادرٍ على التعايش بسلام. وهنا يجب على الإنسان المواجهة وليس الاستسلام. فحقًا الضعفاء هم الأشخاص الذين لا يقدرون على التعايش في هذا العالم. ولأن البقاء للأقوى دائمًا فليس للضعيف مكان؛ وذلك لأن البشر أصبحوا يستخدمون مبدأ التعايش بالقوى ووضع اليد، فأصبحنا نخاف أن نضع أقدامنا على الأرض أو نتجول في شوارعنا أو نترك أولادنا خارج البيت؛ حيث أصبحت الحياة مصدر خوفٍ كبير لنا؛ ولذلك أصبح الأشخاص يلجأون إلى الانتحار كوسيلة تخلصهم من كل هذا الدمار والفوضى العارمة التي نعيش بها، فالخوف من المجهول داء فتاك يصاب به الضعفاء، وأصحاب العقول المغلقة.

«الفصل التاسع»

استيقظت على غير عادتي اليوم، فأنا أيقنت أنه يجب علي المواجهة وليس الاستسلام بهذا الشكل، قمت بفتح الفيسبوك وأكدت علي حضوري الندوة بالقاهرة، ثم ذهبت إلى العيادة وقلت لمحمد أن يحدد موعد مع عمر والاعتذار إليه عن التقصير الذي حدث مني، ودخلت إلى مكتبي وحين دخولي وجدت رسالة موضوعة على المكتب، فتحتها فوجدت تهديدًا آخر. يقول: «لا تذهب إلى القاهرة يا وجدي». كل ما أتى في بالي هو: «كيف دخل إلى هنا؟ ومن عنده الجرأة لفعل كل هذه الأشياء»! ولكن هذه المرة قررت ألا أعطي أي اهتمام، ثم دخل محمد وقال إن شخصًا يريد التحدث معي، ويقول إنه أحد أقاربي، قلت:

- أدخله.

تفاجأت، فكان خالي، مددت يدي وقمت بالتسليم عليه وتعاملت بكل احترام، ثم جلس وقال بنبرة تهديد:

- هذه الأرض ملكي أنا فقط يا وجدي، ومن يفكر في أخذها مني آخذ روحه.

قلت له:

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟ هل ستقوم بقتلنا مثلًا!

رد قائلا:

- من قال هذا! أنا فقط أنبهك يا وجدي. أن هناك خطأ كبير ترتكبونه.

قلت له بأستغراب:

- هل الخطأ أن ناخذ حقنا الذي سلبته منا بغير حق لك؟

قال وهو شديد الغضب:

- هذا حقي أنا، قامت أمك بالاقتراض مني وأخذت الأرض منها بمالي وليس بغير حق.

فقلت له:

- قمت باستغلالها واستغلال وضعها.

نظر إليَّ بنظرة غضب وكأنه يقول: «لن أتركك»، وقال:

- لقد حذرتك وجئت لأتكلم أولًا، وذلك لأنكم أبناء أختي، ولكن من الواضح أنكم تريدون كلامًا آخر.

لم أنطق بأي كلمة وتركته يخرج، ثم جاء شخص يبدو أنه شاب في العشرينات، قطع كشفًا ودخل.

قال:

- محمد إبراهيم، خمسة وعشرون عامًا، أعمل في صيدلية ومقبل على زواج.

سألته:

- مم تشتكي؟

قال:

- أعاني من الوسواس القهري؛ حيث أخاف من البدء أي خطوة في حياتي، ويلازمني دائمًا إحساس الموت وأنني سأموت وأنا شابٌ، حتى خطوبتي لا تمر على خير؛ فطوال الوقت تحدث المشاكل. هذا غير عصبيتي المفرطة؛ لقد أصبحت أخاف من نفسي وعلى كل من حولي، حتى أفكاري أصبحت دائمًا تتجه نحو القتل، والانتقام أنا أصبحت أكره حياتي وكل شيء يحدث بها، حتى من يومين تعديت على أخي الأصغر مني؛ مما أدخله في حالة نفسية سيئة، فماذا أفعل! أصبحت لا أريد العيش. هذا غير الأعراض التي تحدث معي في جسمي، علامات غريبة جدًا؛ حيث ذهبت إلى جميع الأطباء وأجريت كل التحاليل والإشاعات وقالوا إنني بخير وأن ما أعاني منه أعراض نفسية، ويجب الذهاب إلى طبيبٍ نفسي؛ ولهذا جئت هنا.

قلت له:

- بإذن الله مشكلتك بسيطة يا محمد، فبالفعل كل ما تعاني منه هي أعراض نفسية؛ حيث إن الجسم يخرج جميع الأفكار التي في رأسك على هيئة أعراض جسدية؛ ولذلك في مشكلتك هذه نقوم بالعلاج بطريقتين. أولًا نعالج نفسيتك ونصلح في التفكير، فعندما يطاردك الوسواس يجب عليك تجاهله وعدم الاهتمام به؛ فمثلا

لو قال لك: «سوف تموت»، قل لنفسك: «لا يوجد مشكلة، كلنا ميتون»، وهنا تبدأ بتهيئة عقلك على أن يتقبل الفكرة.

أما الطريقة الثانية هي العلاج بالدواء، فهناك أدوية تساعد على تهدئة الأعصاب، كل ما عليك هو مواجهة المشكلة وستكون بخير في الأيام المقبلة.

ثم قمت بكتابة العلاج له، وحددت موعدًا آخر حتى أعرف إلى أي حالٍ وصل.

ثم ذهب وناديت على محمد وقلت له:

- هل قمت بالاتصال على محمد!

قال:

- قمت بالاتصال كثيرًا لكن هاتفه مغلق.

فقلت له:

- عندما يفتح هاتفه أخبره بأن يأتي.

***

قمت بعدها وذهبت إلى بيت خالد، قلت لنفسي: «يجب أن أقوم بمواجهته والاعتذار إليه عمّا صدر مني؛ فأنا كنت صغيرًا ولا أدري ماذا أفعل».

قمت بطرق الباب، فتحت والدة خالد استغربت، وكانت تعبيرات الصدمة تظهر على وجهها، قلت:

- هل يمكن أن أرى خالد، أريد التحدث معه.

فأجابت:

- تفضل يا وجدي.

أدخلتني إلى غرفته عندما رأيته كان حاله ليس على ما يرام؛ فلقد أصبح باهتًا ليس خالد صديقي، وكل هذا بسببي.

قلت:

- كيف حالك يا خالد؟ أنا أعرف أنك لن تسامحني على ما فعلته بك، ولكن وقتها كنت صغيرًا لم أفهم أن هذا سوف يؤذيك بهذا الشكل، لا أعرف ماذا أفعل حتى تسامحني على فعلي هذا، أنا أتيت إلى هنا كي أترجاك وأتوسل إليك، أنا بالفعل وقتها كنت أغار منك وأريد الانتقام منك بأي طريقة ممكنة؛ فأنت كنت مميزًا عني في كل شيء حتى الدراسة، كنت دائمًا الأول وأنا كنت دائمًا بعدك هذا كان يؤلمني.

حتى الملابس كنت تلبس دائمًا الملابس الأنيقة وأنا أقوم بالاقتراض، كل هذا جعل بداخلي كرهًا من ناحيتك أنا أعرف أن هذا ليس مبررًا على ما فعلته، ولكن كنت وقتها أريد أن أكون الأفضل، وكل إنسان يريد أن يكون أحسن فرد؛ فيجب عليك مسامحتي على ضعفي وقلة الحيلة التي كنت فيها.

نظر إلي نظرة انتقام، وكأنه يريد أن يقتلني في الحال، وقال:

- أنت مريض يا وجدي، لا أعرف كيف أصبحت طبيبًا نفسيًا وأنت تعاني! كيف لإنسان طبيعي أن يقوم بقتل مستقبل شخص لم يفعل معه غير الخير!

أنت يا وجدي لم تفعل هذا من أجل الغيرة وحب النفس، ولكن فعلت ذلك عندما عرفت بعمل والدتك عند أبي في الأرض، وهذا جعلك تفعل ذلك حتى تكسرنا، وعلى الرغم مما فعلته ما زلنا نحب والدتك لأنها إنسانة محترمة ولكن لا أعرف كيف أنجبت مثلك!

انفعلت وقلت:

-لا تتصنع دور الشريف، لقد كنت تغار أيضًا من حامد، وكانت لمياء تحبه ولا تحبك، وكنت تسعى وراءها وهي لا تريدك، حتى قمت بفضحه في المدرسة بأكملها ودمرت حياته ومثل ما فعلت أنا السيئ، فعلت أنت الأسوأ.. كلنا نجري وراء مصالحنا، والبشر كلهم يعيشون بمبدأ المصلحة فوق أي شيء؛ فلا تجعل نفسك من الشرفاء، أنت قذر وتستحق أن تعاقب.

رد قائلا:

- يا وجدي، مشكلة الإنسان السيئ أنه يرى كل الناس من حوله مثله! الجميع يعرف أن والدك نصاب؛ وهذا ما يجعلك تشعر بالنقص.

عندما نطق لي هذا الكلام قمت ونزلت يدي على وجهه، فكنت أحترق من داخلي، تشاجرنا حتى أتت أمه وقامت بطردي وقالت:

- ألا يكفيك ما فعلته به!

خرجت من عنده وأنا أشعر بالنيران تأكل داخلي، يقول إني أريد أن أقتله هو وأمثاله وينتهي العالم منهم؛ حيث إن أكبر وسيلة تدفع الإنسان للقتل هي تصرفات من حوله، فأصبح البشر بأكملهم لا يسامحون ولا يحملون في قلوبهم إلا السواد والكره. كنت أثور من داخلي، لا أعرف ماذا أفعل؛ فكل ما يدور بداخلي هو أن أقتل خالد والرجل الذي يقوم بتهديدي.

ذهبت يومها إلى منطقة تسمى: «كوم سليمان»، كنت أعرف هناك صديقًا اسمه «مهدي»، كنت أحبه كثيرًا وأرتاح معه في الحديث، وصلت واتصلت عليه وقام بالنزول وجلسنا في المضيفة.

قال:

- «والله زمان يا وجدي»، مر زمن ولم تأت.

قلت له:

- تعرف يا مهدي أن الحياة مشاغل؛ غير أنني أمر بالكثير من المشاكل؛ حيث إن كل الظروف تدفعني إلى الانتحار أو القتل؛ فلا يوجد داخلي غير ذلك؛ فأنا أقوم بمعالجة البشر وأحتاج من يعالجني؛ فالحياة لا تريد أن تعطيني فرصة حتى أعيش بسلام.

تعجب قائلا:

- لم أرك بهذا الشكل يا وجدي في حياتي! لماذا تفكر في الأمور بهذه الطريقة! كلنا نمر بظروف وحياتنا تصبح مليئة بالمشاكل، لست وحدك من يعاني.

تحدثت بنبرة مخيفة، أول مرة في حياتي أتكلم بها، قلت:

- البشر هم من جعلوني أفكر بهذه الطريقة، أنا أكرههم وأكره تصرفاتهم الدنيئة القادرة على جعل الإنسان إنسانًا آخر غير الذي كنت عليه.

وحين كنت أتحدث كنت أرى وجهه «خالد» أمامي وليس «مهدي» فانفعلت عليه وقلت:

- سوف أقتلك يا خالد، أنا أكرهك من زمن ولم أعرف كيف أحبك، كنت دائمًا أفضل مني وتقوم بمعايرتي بظروفي.

رد على كلامى بخوف وقال:

- اهدأ يا وجدي، أنا لست خالد، ولا تقل ذلك الكلام.

هجمت عليه وهو يتحدث، بدأت أخنقه حتى كاد أن يموت بيدي، ومن حظه أن أخوه أتى صدفة ورأى المنظر، قام بضربي بقدميه حتى استعدت وعيي، نظرت إلى «مهدي» كان يمسك رقبته ويحاول استعادة النفس.

قلت:

- لا أقصد يا مهدي.. لا أقصد.

وكنت أبكي؛ لقد أصبحت إنسانًا غريبًا.

رد بغضب شديد:

- اذهب يا وجدي، لا أريد أن أرى وجهك هنا مرة أخرى.

***

ذهبت وكانت الدنيا تدور من حولي، لا أعرف من أنا، وصلت إلى قريتنا ووقفت عند ضفة النهر وكل تفكيري هو أن ألقي بنفسي في هذه المياه لكي تبتلعني حتى أنتهي من حياتي المتعبة، أصبحت مكسورًا لدرجة لم تجعل لدي القدرة على التعايش في هذه الحياة، ثم وأنا أقف بدأت الرؤية من أمامي تميل إلى اللون الأسود وجسمي أصبح غير متزن وعيني تأتي عليها غمامة وبعدها. وقعت على الأرض، فتحت عيني وجدتني في منزلي وأمي تجلس بجواري؛ فقلت لها:

- من أتى بي إلى هنا؟

بدأت تبكي:

- ماذا يحدث لك يا ولدي! أصبحت شخصًا آخر غير وجدي الذي أعرفه.

وقامت بضمي إلى حضنها، وكنت لا أنطق؛ فأنا الذي بداخلي أكبر من التفوه به بالكلمات؛ هذا الوجع الذي أصبح ينهش في جسدي؛ مما جعلني كبيت متآكلٍ جدرانه؛ فهو من الخارج صلبٌ من الداخل هش ضعيف، فمهما وصل الإنسان إلى درجة من الثبات يأتي عليه وقت يكون أضعف مما يتخيل. وفي هذا الوقت لا يريد

أي شيء غير الاحتواء، فهو من أهم الأشياء التي يجب أن يقدمها الإنسان لمن حوله. نحن البشر عندما نرى إنسانًا حزينًا نظل نعطي له حلولًا منطقية في سبيل أن هذا الإنسان لا يحتاج إلى أي حلول قدر احتياجه إلى احتواء أو ضمة؛ ولذلك أرى وجود شخص بجوارك قادر على أن يجعلك تتخطى الكثير من الحزن؛ وجود شخص قادر على أن يجعل منك إنسانًا صالحًا قادرًا على مواجهة الحياة، فلو كل البشر علموا حقيقة الدنيا ما كنا تصارعنا بهذا الشكل المخيف، لم نجد أي أب يأتي بأبناء ويجعلهم يكرهونه، كنا لن نرى زوج يقوم بقتل زوجته أو العكس، كنا لن نرى عمًا أو خالًا يأكل إرث أبناء إخوته.

لو نعلم أن نهايتها مترًا في مترٍ ما كنا لنقوم بهذه الأفعال مع بعضنا، هذه الدنيا التي نجري فيها ما هي إلا وهم كبير ونقع فيه، فنحن في فاصل ينقلنا إلى الحياة الحقيقة، فقد سرقتنا بمشاغلها وهمومها وانستني الحق الواجب علينا لوجودنا فيها، فالدنيا ليست كل القصة، إنها فصل في رواية كان لها بدء قبل الميلاد وسيكون لها استمرار بعد الموت، وفي داخل هذه الرؤية الشاملة يصبح للعذاب معنى، فعندما نوضع في قبورنا وقتها فقط ندرك أن كل ما كنا نسعى وراءه ما هو إلا كذبة وكنا نقع بها.

فقد ساءت الحياة من حولنا وأصبح العالم ظلامًا حالكًا. لا يمكن للإنسان التأقلم بسهولة، أصبحنا صوره لغلافٍ أسود يوجد عليه

أشخاص تتساقط دموعهم وحزنهم في الحياة، شوهت الأفكار- والعادات - تجاهلنا الدين والأشياء التي تربينا عليها . أصبح البشر لا يفرق معهم إلا المظاهر الخداعة والكذب والنفاق، أصبحنا نبحث عن الملابس الماركات والهواتف الأغلى والساعات، ونسينا أنفسنا والأشياء الأكثر أهمية لوجدنا في هذه الدنيا الفانية غير الباقيه لأي إنسان مهما دام وجوده في الحياة.

الكل يكذب؛ فالموظف يكذب من أجل أن ينال رضا مديره، والابن يكذب على والده من أجل الحصول على بعض الأموال، وأمثال أخرى كثيرة؛ حيث أصبح الوصول إلى شيء أسهل بالكذب، فلا أحد يترك الأمور لله. كل أصبح يستخدم عقله للحصول على الأشياء من حوله.

«الفصل العاشر»

مرت الأيام وكنت لا أذهب إلى العيادة؛ فأنا أشعر بعدم ارتياح لما أنا فيه، اتصل «محمد» وقال:

- ماذا ستفعل اليوم يا دكتور؟ مرت خمسة أيام ولم نفتح العيادة.

قلت:

- سوف آتي اليوم.

قمت ولبست وذهبت إلى هناك، كنت جسدًا يمشي ولكن لا يوجد بداخله روح.

سألته عن عمر:

- هل قام بالرد أم لا؟

قال:

- يوجد شيء غريب؛ حيث إن عمر هاتفه مغلق، ولا أعرف كيف أصل إليه.

بدأ الخوف يتملكني فعمر كان يريد الانتحار، قلت: «يجب أن أبحث عن مكانه وأذهب إليه»، وبالفعل قمت وذهبت إلى المقابر لآخذ العنوان من «عم عوض»؛ حيث إنه يعرف كل من يأتي إلى هناك. وصلت إلى هناك، وسألت «عم عوض»

اندهش وقال:

- غريبة يا دكتور أنت جئت إلى هنا منذ خمسة أيام تقريبًا، وأخذت عنوانه.. هل فعل شيئًا معك!

أجبت بتعجب:

- أنا أتيت إلى هنا كيف؟

رد قائلا:

- سلامتك يا دكتور، منذ خمسة أيام جئت هنا وأخذت العنوان، وكنت تريد الذهاب مسرعًا، حتى إنني طلبت منك أن تتناول معي كوب شاي ذهبت ولم ترد علي، ومن وقتها لم يأت عمر يوميًا إلى هنا كعادته الدائمة، أرجو أن تطمئن عليه فهو يعيش وحيدًا ولا يوجد لديه أحد يقوم بالسؤال عليه.

عندما كان يتحدث شعرت وكأنه يضع خنجرًا داخل قلبي؛ لقد جعلني أخاف أكثر من ذي قبل: كيف أخذت عنوان عمر! وهل أنا أتحرك دون أن أشعر! وكيف يحدث ذلك! كنت واقفًا مصدومًا، لا أعرف ما الذي وصلت إليه، وبدأت أشك أن «عم عوض» يريد أن يجعلني مجنونًا. أصبح العالم يدور من حولي، تركته وقمت بالذهاب إلى العنوان وقمت بطرق الباب ولكن لم يرد أحد.

ثم خرج من الشقة المقابلة له رجلًا وقال:

- أستاذ عمر خرج منذ خمسة أيام ولم يأت؛ حيث إن هناك شخصًا أتى وأخذه وذهبوا.

قلت له في دهشه:

- كيف يبدو هذا الشخص؟

قال:

- يرتدي شالًا أسود.

صعقت مما قال وتركته ونزلت، أخذ ينادي علي فلم أرد عليه؛ فأنا أيقنت وقتها أنني قد أصبحت مجنونًا...!

«هل عمر هو من أرسل هذا الشخص؟ لا أفهم أي شيء! لا أعرف من معي ومن ضدي ولماذا عمر يفعل معي ذلك».

ذهبت إلى العيادة، قال محمد:

- هل وصلت إلى أي شيء؟

- لم أجده؛ فهو مختفٍ منذ خمسة أيام، أحضر فنجان قهوة إلى مكتبي.

وبقيت جالسًا.. وبعد مرور ساعة دخل محمد دون أن يطرق الباب وقال:

- يا دكتور، لقد وجدوا جثة ملقاة في المياه.

***

ذهبت مسرعًا إلى هناك، وكانت الصدمة وجدت جثة عمر، فقد روعت من المنظر؛ حيث كان جسده كله لونه أزرق؛ من الواضح

أنه ملقى منذ أيام، وطفت جثته علي المياه، أصبحت خائفًا أكثر. من المؤكد أن من قام بقتله هو الشخص المجنون الذي يهددني، ولكن كيف! فجاره يقول أنه نزل معه، معنى ذلك أنهم أصدقاء، يمكن أن يكونوا قط اختلفوا سويًا.

بدأت أسأل نفسي وأقوم بالجواب عليها، حينها أدركت أنني من عليه الدور، قلت لنفسي: «يجب أن أترك هذه القرية»، وبالفعل كنت سأذهب إلى البيت لتحضير الحقيبة والانتقال إلى القاهرة ولكن أتت الشرطة وقاموا بأخذ الأقوال من الأشخاص الذين أخرجوه من المياه، ثم قاموا باستدعائي؛ وذلك لكوني الطبيب النفسي الذي يعالجه، وحين وصلت إلى مخفر الشرطة وجدت إسلام فقال لى:

- هل يوجد شيء معك يا وجدي؟

قلت:

- لا فقد وجدوا جثة لحالة كانت تأتي العيادة وقاموا باستدعائي لمعرفة معلومات عن المجني عليه.

قال:

- لا تقلق فهذا أمر طبيعي.

وقاموا بأخذ أقوالي وقتها وتركوني، وقالوا إنها قضية انتحار ولكن سيتأكدون من الطب الشرعي؛ هل تم الاعتداء عليه قبل الحادث أم لا.

وبعد يومين استدعوني مرة أخرى؛ حيث قال الطبيب الشرعي إن سبب الوفاة اختناق وليس الغرق، فقد قام شخص بخنقه قبل أن يلقيه إلى المياه. وطلب مني الشرطي وقتها أن أخبره كل شيء عن عمر وماذا كان يفكر في الأيام الأخيرة؛ وهل كان يوجد شخص يهدده أم لا.

قلت:

- إن هناك شخصًا يراقبني أنا وعمر، وكان يهددني دائمًا ويريد أن يؤذيني وقد رأيته ولكن لا أستطيع أن أحدد ملامحه؛ لأنه يرتدي شالًا أسود، وقد قال جار عمر أنه نزل مع هذا الشخص بالفعل قبل وفاته.

قال الشرطي إنهم سيبدأون في البحث عن هذا الشخص، ولكن يجب أن أساعدهم هذه الفترة.

وقال إنهم سيفرغون كاميرات المراقبة التي يضعونها عواميد الإنارة في القرية، وبالفعل أتوا بالفيديوهات ووجدوا شخصًا يرتدي شالًا، هو من قام بقتل عمر، وبدأوا في البحث عن هذا المجنون وقاموا بإذاعة الخبر في القرية بأكملها أن هناك شخصًا يقوم بقتل الناس ويجب عليهم الحذر، وبدأت الناس بالدخول في حالة رعب ولا يمشون في وقت متأخر في الشوارع، وبدأت الأهالي بمنع أبنائهم من النزول، وكنت أنا وقتها أريد السفر إلى القاهرة

فموعد الندوة قد اقترب، بلغت الشرطي أنه يجب علي حضور هذه الندوة،

اعترض في بداية الأمر وقال:

- يجب أن تساعدنا في إيجاد هذا الشخص؛ فهو لم يظهر لأي شخص غيرك.

ولكن قمت بالتحدث مع إسلام وقام بإقناعه، ثم قال إنه سوف يكمل تحقيقه ويقوم بتفريغ جميع الكاميرات حتى يعرف هل هذا الرجل يعيش بالقرية أم لا.

وحين كانت قضية «عمر» جاري البحث فيها، حدثت جريمة قتل أخرى ولكن هذه المرة كان «خالد»، حيث وجدوا جثته ملقاة في الأرض التي خلف منزلهم، بدأت الأمور تزداد سوءًا معي؛ فأنا كنت على صلة مع الاثنين؛ فقامت الحكومة باستدعائي مرة أخر، وقامت بالتحقيق معي لأتهام أم «خالد» أنني من قتله؛ وذلك لأنني تشاجرت مع ابنها منذ أسبوع، فمن يكون هذا الرجل الذي يريد تدمير حياتي! وأخذت أفكر في كلامه معي في الهاتف لكي أصل إلى أي معلومة، ولكن كان كلامه معي يقول إنه لن يتركني أعيش مرتحًا وسيحول حياتي إلى دمار؛ فهو لا يريد قتلي بقدر ما يريد إيذائي؛ حيث إن ارتكاب الجريمتين أكبر دليل على إنه يريد حبسي وتدمير حياتي.

بدأت الشكوك تتوالى في كل من حولي ولكن هذه المرة قامت الحكومة بحبسي أربعة أيام على ذمة التحقيق، كنت أعيش حياتي ولم أتوقع أبدًا أن يأتي اليوم ويتم وضعي في السجن. ومرت الأربعة أيام وكأنهم أربعة سنين، وتم الإفراج عني بمحل إقامتي؛ فلم يجدو علي أي شيء، قمت بالذهاب إلى المنزل حتى أجهز حقيبتي وأترك هذه «المخروبة»؛ فقد كرهت القرية بكل ما فيها. ذهبت إلى القطار وقمت بشراء تذكرة، عندما وصلت إلى القاهرة ووضعت قدمي على ترابها أول من جاء في بالي «آلاء»، فقد كنت أشتاق إليها وإلى الحديث معها؛ فهي كانت غير كل الناس بالنسبة إلي، لو كانت طلبت الدنيا وما فيها لكنت أتيت بها تحت قدميها ولكنها استسلمت ولم تقاوم من أجل إكمال العلاقة.

قمت بالاتصال ب«سمير» صديقي؛ حتى ألتقي به، فعندما سمع صوتي لم يصدق قال:

- اشتقت إليك كثيرًا يا صديقي، فات زمن ولكن مكانتك داخل قلبي لم تتغير.

قلت له:

- أنت أكثر، وأخبرته أنني بالقاهرة، أتى لاصطحابي، وحين رآني أخذني في حضنه وقال:

- «لسه فاكراني يا واطي»!

ثم ذهبنا إلى منزله، كنت مرهقًا جدًا من السفر، طلب مني أن نذهب لنجلس مع أصدقائنا.

قلت:

- لن أقدر على مقابلة أحد اليوم، أريد النوم، ثم النزول للبحث عن شقة.

قال:

- لا تقل هذا الكلام. أنت في بيتك.

قلت له:

- أعرف يا أخي، ولكني لا أريد أن أكون عبئًا عليك؛ وخاصة لا يصح أن أجلس مع والدتك وأختك.

اعترض في بداية الأمر ولكن قمت بالإصرار عليه في ذلك.

قال:

- هو كذلك.

دخلت ونمت، واستيقظت الساعة الثامنة مساء، ونزلنا نتجول في شوارع القاهرة التي تمتلئ ليلًا ونهارًا، وقلت:

- أريد الذهاب إلى وسط البلد.

وبالفعل ذهبنا إلى هناك؛ فهذا الجمال الذي أراه هناك له طعم آخر. بدأنا نسأل عن شقة للتأجير لمدة شهر ووجدناها، وقلت لسمير أن نذهب ونأتي بالحقائب الآن، ولكنه قال:

- ليس الآن، سوف نجلبها في المساء.

تفاجأت أنه تمت دعوته هو الآخر على الندوة وقلت:

- هل تعرف شيئًا عن آلاء؟

قال:

- لا أعرف أي شيء عن أصدقائنا، ولكن قد سمعت أنها تزوجت منذ عام.

عندما نطق هذا الكلام أصبح الحزن يملأ وجهي، وأصبحت عيناي تلمع بالدموع.

حين رآني حزينًا قام بتغير الموضوع، وقال:

- هل تعرف أن شادي قام بفتح عيادة في منطقة تسمى: «المهندسين»، تقرب من وسط البلد، ما رأيك أن نذهب إليه؟

وقام بالاتصال عليه ليتأكد هل هو متواجد بالعيادة أم لا، وكان هناك. ذهبنا إليه وأخذته بالحضن، وكان سعيدًا جدًا لرؤيتي، بدأنا نتحدث عن ذكريات الجامعة، ثم قال:

- تعرفون أن آلاء قامت بفتح عيادة بمنطقة مصر الجديدة وقام بدعوتي وذهبت إليها منذ عدة أيام؟

قلت أنا بلهفة:

- هل يمكن أن تصف لي هذا المكان؟ هل هو بجانب منزلها؟

قال سمير:

- ماذا تقول يا وجدي؟ هذا الموضوع قد قفل منذ زمن ولا يصح التحدث فيه لأنها متزوجة.

انفعلت عليه وقلت:

- أريد أن أبارك لها كوني صديقًا لها وليس كما فهمت!

قال شادي:

- تمهل يا وجدي، سمير لا يقصد شيئًا؛ هو يحدثك في الأمر الصحيح، وأنك يجب أن تأخذ حذرك الآن في التعامل معها.

قلت:

- لا تقلق، أنا أعرف ماذا أفعل.

طلبت منه أن يعطيني العنوان وفعل، قلت:

- أستأذن أنا وسمير حتى أقوم بنقل الشنط في الشقة التي قمت بتأجيرها.

ولكن شادي جاء معنا بسيارته، وذهبنا إلى شقة سمير، وجلبنا الشنط ونقلناها إلى وسط البلد، وجلسنا قليلًا في الشقة وقالوا:

- هل فتحت عيادتك الخاصة؟

قلت لهم:

- نعم، ولكن في القرية.

ضحكوا، وقال سمير:

- ومن في تلك القرية يريد أن يحكي عن مشاكله الخاصة ويفصح عنها بكل سهولة؟

قلت:

- كنت أفكر بهذه العقلية في بداية الأمر، ولكن اتضح لي أن كل من في القرية يحتاجون إلى من يحل لهم مشاكلهم، حتى أنا أحتاج إلى أن أحكي مشكلتي. وضحكت.

فرد سمير كعادته التي لم يغيرها:

- لا يوجد غير حبيبة القلب يا سيدي التي كنت تحكي لها.

نظرت إليه وقلت:

- أنت لم تتغير، ستظل طوال عمرك يوجد بك نفس العادة.

قال بأبتسامه:

- أنا أمزح معك يا صديقي، تكلم وقل ما يحدث معك.

قلت:

- كنت متهمًا في قضية قتل منذ أيام في القرية لأن الاثنين الذين قُتلا كنت على صلة بهما.

رد قائلا:

- وما صلتك بشيء مثل هذا!

قلت له:

- كيف لا تكون لي صلة بهما والاثنين ذات صلة وطيدة بي؛ حيث إن أحدهم مريض عندي والآخر صديقي منذ الطفولة.

سألنى بفضول:

- هل وجدوا القاتل؟

قلت:

- إنهم مستمرون في البحث ولكن الغريب في القصة أن القاتل يرتدي شالًا على وجهه وظل فترة يراقبني أنا أيضًا قبل هذه الجرائم ودائمًا كان يرسل تهديدًا بطرق مختلفة.

تعجب شادي وقال:

- هل تعني أنه قتلهم ليقوم بإخافتك أكثر!

قلت:

- لا أدري، ولكن من الواضح أن الأمر كذلك.

ثم قاموا وذهبوا، وقال سمير إنه سيأتي غدًا في المساء، وشادي قال بعد الانتهاء من العمل؛ سوف أتى.

***

نمت أنا واستيقظت كعادتي بالصباح، وجهزت الفطور وفنجان القهوة لنفسي، ودخلت إلى الشرفة فى وسط البلد لم أرَفي جمالها في مصر فعلًا؛ هي من أكثر الأماكن المريحة للنفس؛ وعلى الرغم من أن بها ضوضاء طوال الوقت لكنها متميزة بأهلها الطيبين، الذين إن احتجت لهم وجدتهم، فقد عاشرت أهل القاهرة أيام الجامعة وأعرفهم جيدًا.

بقيت جالسًا حتى وقت العصر، وبعدها قمت وارتديت لأذهب إلى عيادة «آلاء»؛ أنا متشوق حقًا لكي أراها، فعلى الرغم من كل هذه السنين ما زالت «آلاء» ذات مكانة خاصة بداخل قلبي، لا أعرف محوها. ذهبت إلى هناك، وعرفت أنها تأتي في تمام الساعة

السادسة مساء، قمت بقطع كشف ونزلت وانتظرتها في مقهى بجوار العيادة، مرت الساعتان ببطء شديد، فعندما يكون الإنسان مشتاقًا إلى شيء يمر الوقت ببطء.

وجاءت الساعة السادسة، وصعدت إلى العيادة، وكانت هي بالداخل؛ كانت قد أتت منذ قليل. رنت الجرس وقالت للفتاة الجالسة بالخارج بأن تدخل الحالة وعندما دخلت كانت صدمة لها عندما رأتني، بقيت صامتة لا تتكلم، قلت لها:

- كيف حالك يا آلاء! تغيرت كثيرًا ولكن ما زلت بنفس الجمال.

رددت بقلق:

- تفضل يا وجدي، كيف أحوالك؟

قلت لها:

- أتيت إليك لأنني لست بخير؛ فأنا أمر بالعديد من المشاكل.

وبدأت أحكي لها عن كل شيء يحدث معي، وكان الكلام لا ينتهي؛ فأنا وأنا معها لا أشعر بمرور الوقت، فقلت لها إنني ذاهب إلى الندوة، وقالت إنها ذاهبة هي الأخرى.

ثم سألتها كيف تسير حياتها قالت:

- تزوجت ورزقني الله بفتاة تسمي «ياسمين».

ثم قلت لها:

- أنا جالس هذه الأيام في القاهرة إذا أردت أن نلتقي تحدثي.

قالت:

- سأرى مواعيدي في العمل وأحدثك.

استأذنت وذهبت، كنت سعيدًا جدًا لرؤيتها، ولكن كنت مكسورًا على فراقها. حين نزلت قمت بالاتصال على سمير وقابلته في شقتي، وجلسنا نتحدث حتى سرقنا الوقت ونزل من عندي سمير تمام الثالثة فجرًا، ودخلت أنا لكي أنام، وحين استيقظت في اليوم التالي وجدت اتصالاتٍ كثيرة من «شادي»، أصابني القلق، وقمت بالاتصال عليه، وقال إن سمير قتل ووجد ملقيًا في الشارع، ألقيت هاتفي من يدي ولا أعرف ماذا أفعل، لقد صعقت من الخبر، نزلت مسرعًا قابلت «شادي» وذهبنا إلى بيته، عندما دخلت وجدت صريخَ النساء يملأ الشارع، وجاءت الشرطة وسألت من آخر شخص كان متواجدًا، معه قالت والدته إنه قام بالذهاب إلى صديقه وجدي، قال الشرطي:

- وأين وجدي هذا؟

قلت:

- أنا.

قال للعساكر:

- خذوه على القسم.

وقبض عليَّ أنا و«شادي» لكوننا أصدقاءه من الدرجة الأولى، و«شادي» اعترف أنه قد حدث معي جريمتان قتل؛ وأنني كنت متهمًا فيهما.

بدأ يشك الشرطي، وقام بالتحقيق معي ولكن خرجت في المساء لعدم ثبوت أي شيء ضدي، أخذت أفكر: «هل جاء الشخص الذي يهددني إلى هنا وقام بقتل سمير هو الآخر! لا أعرف ما الذي يحدث معي فأي بني آدم يقترب مني يصبح مصيره الموت، أصبحت لعنة على كل من حولي»!

ذهبت إلى الشقة وقمت بالنظر إلى المرآة، رأيت وجهًا باهتًا مكسورًا لا أعرفه وكأني أنظر إلى شخص غريب، ثم بدأت أرى نفسي بأنني الشخص الذي يرتدي الشال الأسود، وقمت بكسر المرآة بيدي؛ لماذا يحدث معي كل هذا! ذهبت إلى السرير ورميت جسدي عليه مثل الموتى.

«الفصل الأخير»

استيقظت على طرق شديد على باب الشقة، قمت بفتح الباب وجدت الشرطة، أخذوني بعنف مثل المجرمين ودخلوا ليفتشوا الشقة.

قلت:

- ماذا يحدث؟ أنا لم أفعل شيئًا، لماذا تأخذوني!

سحبوني إلى قسم الشرطة وقاموا بوضعي في الزنزانة، جلست أصرخ على آخري: «أنا لم أفعل شيئًا»!

وبقيت جالسًا في غرفة الحبس حتى المساء، ثم أخذوني إلى غرفة التحقيق، وقاموا بتغطية عيني، وبدأوا في الاستجواب:

- كيف قتلته؟

قلت بتوتر:

- أنا لم أقتل أحدًا.

قال المحقق:

- الكذب لن يأتي لك بنتيجة. تم العثور على دليل الإدانة في بيتك، وقد ظهرت في كاميرات المراقبه وأنت تنزل وراءه من بيتك وقمت بقتله.

قلت بأنفعال:

- أنا لم أقتل أحدًا، أنا طبيب محترم وأحب سمير كثيرًا، فكيف سأقتله!

من المؤكد أن أحدًا يريد إلقاء التهمة علي، قال:

- البيت الذي تسكن به يوجد فيه كاميرات مراقبة، وظهر وجهك وأنت تخرج من المنزل وتضع الشال على رأسك.

قلت له:

- هذا كذب، كلكم تكذبون، أنت معه وتريد أن تدمر مستقبلي، أنا لم أفعل شيئًا.

أجابنى قائلا:

- كل ما تفعله لن يخرجك من هنا، الحقيقة فقط القادرة على حل المشكلة معك، لا تحاول الهروب بهذه الأفعال.

قلت له:

- أنا أريد الطبيبة آلاء عبد الرحيم، لن أفصح عن شيء إلا في وجود الدكتور آلاء.

وبالفعل قاموا باستدعاء «آلاء»، عندما دخلت ابتسمت وقلت لها بلهجة تدل على أنني أعاني من مشكلة نفسية:

- يقولون انني قتلت سمير، أنت تصدقيني!

ردَّت «آلاء» والدموع تملأ عينيها:

- كل الأدلة ضدك يا وجدي، أفصح لي عن كل شيء حتى أستطيع مساعدتك.

هززت رأسي وقلت:
- أنا لم أقتل أحدًا يا آلاء، أنا فقط خلصت العالم من شرهم.
و ضحك بصوت عالٍ حتى قام الشرطي بضربي، فاعترضت آلاء قائله:
- لا تفعل ذلك مرة أخرى، من فضلك اتركني أتكلم معه قليلًا.
بدأت أحكي لها عن كل جريمة فعلتها؛ بداية بعمر وانتهاء بسمير؛ حيث إن عندما تشاجرت أنا وخالد كنت مشتاقًا إلى قتل كل من حولي، فذهبت إلي عمر فى نفس اليوم، فعندما جاء إلى العيادة وسمعت قصته وجدت أنه شخص مؤذٍ لكل من حوله؛ فهو الذي قتل والدته وحرم إخوته منها؛ فكان يجب أن ينتهي وجوده في العالم.
كنت أراقبه فترة، ثم يوم قتله ذهبت إلى هناك وكنت أرتدي الشال على رأسي، حين رآني استغرب وقال: «ما الذي أتى بك إلى هنا يا دكتور وجدي؟ وهل أنت من كنت تراقبني هذه الفترة؟» قلت له إنني كنت أراقبه من أجل أن أعرف ماذا يفعل وكيف سيتصرف بعد أن يخرج من العيادة، إستاء في البداية ولكن قمت بإقناعه في النهاية وطلبت منه أن يأتي معي لنتجول قليلًا؛ فأنا أريد التحدث معه وأريد أن أغير من حاله. وبالفعل أتى معي وأخذته، وذهبنا عند ضفة النهر وبدأنا نتحدث، وبعدها نظرت إلى عينيه وقلت له: «هل تعرف يا عمر؟ أنت تستحق القتل». ضحك

وكان يفكر أنني أمزح معه، قال: «بالتأكيد، من مثلي لا يستحق أن يعيش في هذا العالم المزيف»، ابتسمت ابتسامة خفيفة و فجأة قمت بوضع يدي على رقبته، وقمت بخنقه حتى لفظ أنفاسه أمامي وقمت بإلقائه في النهر.

تعرفين يا «آلاء»، كان شكله جميلًا وهو يموت بين يدي، وجلست أضحك. قالت آلاء:

- أكمل يا وجدي.

قلت لها:

- أما خالد، فكان أعظم انتصارٍ لي عندما قتلته، فكان فاجرًا يستحق الموت، بعد أن تشاجرنا بأيام كنت متشاقًا إلى قتله، ذهبت في يوم، الساعة الواحدة مساء، ومن حسن حظي أنني رأيته جالسًا أمام المنزل، وقفت على الأرض وقمت باستدراجه دون أن يعلم من الذي ينادي عليه، وعندما جاء ورآني قال لي: «أنت مرة أخرى يا وجدي! لا أعرف ماذا تريد، هل تريد أن أقتلك؟» قلت له: «أنا لن أعطيك فرصة كي تقتلني؛ لأنني من سيفعل ذلك»، قمت بخنقه و لكن هذه المرة لم يصبني الحظ، فقام بفك يدي وركلني بقدمه وقام جريًا ولكنه كان يأخذ نفسه عنوة، لحقته وقمت بضربه بحجر على رأسه، فوقع أمامي، وقمت بخنقه حتى مات، ثم بعدها جلست أمام جثته وقلت له:

«أنت من جعلني أفعل ذلك؛ حيث كنت أفضل مني دائمًا، وكنت دائمًا تحاول أن تقلل مني» وبعدها تركته.

أما سمير فقمت بقتله لأنه إنسان غبي، يريد المزاح طوال الوقت، ومنذ معرفتي له دائمًا كان يقوم بالاستهزاء مني؛ حتي جعلني أكرهه، فاليوم الذي كان يجلس معي جعلته ينزل، وقمت بالنزول من ورائه، وجلست أتسحب دون أن يراني، ودخلنا في شارع مظلم فالتفت فرآني قال: «ما الذي أتى بك إلى هنا يا وجدي؟ ولماذا ترتدي هذا الشال على رأسك؟» نظرت إليه دون أن أتحدث، وقمت بخنقه حتى مات في يدي، وتركته وذهبت إلى شقتي.

لم أتحدث لبضعة دقائق، وقمت بهز رأسي وقلت:

- أنا لم أقتل أحدًا يا آلاء، أنا لم أقتل.

وبعدها ضحكت وقلت لها:

- تعرفين أنك تستحقي أن تموتي مثلهم؛ فأنت أيضًا قمت بإيذائي وتركي دون أن أفعل لك شيئًا.

قالت آلاء بتعجب:

- أنا لم أتركك يا وجدي أنت الذي لم تأتِ يومها.

انفعلت عليها وقلت:

- لا تكذبي يا آلاء، فقد أتيت إليك وقامت أمك وعمك بالاستهزاء مني.

ردَّت وقالت:

- أنت لم تأتِ يا وجدي، فقد انتظرتك يومها كما اتفقنا سويًا، وأنت من قلت سوف آتي وجلست أنا وأمي ننتظرك ولم تأت! وجلست أتصل بك ولكن كان هاتفك مغلقًا!

قلت لها:

- اخرسي؛ أنت تكذبين.. أنت من تركتيني وحيدًا، أنا أكرهكم جميعًا، فكل البشر كاذبون، ومشاعرهم زائفة، كلهم يعملون من أجل المصلحة، ولا يهمهم مشاعر الغير، كلٌّ يحب نفسه فقط ولا أحد ينظر إلى الآخر؛ فالبشر هم من قاموا بخراب هذا العالم، وهم من يصنعون المجرم، كنت طفلًا في يوم من الأيام، كنت أحلم أن أعيش طبيعيًا في وجود أب وأم ونعيش حياة كريمة، ولكن حتى من صغري قام أبي بالبعد عنى لأنه أناني مثلكم ولا يحب غير نفسه، كل ما أنا عليه أنتم السبب فيه.

ثم ضحكت وقلت:

- لم أتركك يا آلاء سوف أقتلك.

قامت آلاء وطلبت من الشرطي القدوم للتحدث معه، وأخذت أنادي عليها:

- لا تذهبي يا آلاء، أنا أحبك لا تكوني مثلهم.

***

كنت أتوهم أنه يوجد شخص يراقبني، حتى رسائل الفيسبوك كنت أنا من يرسل الرسائل، فأنا من أريد مواجهة نفسي ولكني

كنت لا أعرف حقيقتي؛ فالإنسان يظل يجري في الحياة من أجل الحصول على الحقيقة، وعند الوصول إليها يجد أنه كان لزامًا عليه ألا يعرف الحقيقة الكاملة، ففي بعض الأحيان يكون عدم المعرفة الكامله للأشياء من حولك رحمة من الله لنا.

وتم تفسير حالتي بأنني أعاني من انفصام في الشخصية؛ حيث إن الفصام اضطراب عقلي شديد يفسر فيه الأشخاص الواقع بشكل غير طبيعي. وقد ينتج عن الإصابة بالانفصام في الشخصية مجموعة من الهلوسات والأوهام والاضطراب البالغ في التفكير والسلوك، وهو ما يعرقل أداء الوظائف اليومية، ويمكن أن يسبب الإعاقة.

يحتاج المصابون بالفُصام إلى علاج مدى الحياة. ويمكن للعلاج المبكر أو يساعد على السيطرة على الأعراض قبل ظهور الأعراض الخطيرة وتحسين المظهر على المدى الطويل.

فكل ما يحتاجه مريض الانفصام هو التحدث معه وعدم ترهيبه مما يفعله فكان من الممكن إنقاذ حالتي في بداية الأمر، ولكني كنت لا أجد من يكون بجانبي ويساعدني على مقاومة ذلك المرض ولكن قد فات الأوان.

***

بعدها قامت الشرطة بتحويلي إلى مستشفى الأمراض العقلية، وظلت آلاء تأتي إليّ وتتحدث معي كل فترة، ولكن كنت وقتها لا أريد شيئًا غير موتي؛ فأنا تحطمت بعد كل ما حدث، حيث إن

الإنسان يظل يسعى في الحياة من أجل العيش بسلام، ولكن تأتي المشاكل إليه دون سابق إنذار؛ فكنت لا أريد إلا حياة كريمة واسره متفاهمة، أعيش معهم دون أن أحمل بداخي أي همٍّ، ولكن كان ابتلائي منذ صغري. وكما نعرف فالإنسان لا يقدر على اختيار أسرته، فكل شيء في حياتنا مقدرٌ قبل أن نولد ولكن لا يجب على الإنسان ألا الاستسلام بسهولة لمشاكله، كما فعلت أنا؛ فيجب المقاومة لكي يعيش؛ فالضعفاء فقط هم من يهربون وكنت لا أستطيع السيطرة على ضعفي؛ فقد تركت نفسي حتى وصلت إلى النهاية.

أتذكر قصة قد سردها جدي لي وأنا صغير: «في يوم من الأيام كان هناك رجلاً يركب على متن سفينة كبيرة في عرض البحر مسافرًا، وفجأة هبت عاصفة شديدة أدت إلى إغراق السفينة بالكامل، نجا عددٌ من الركاب وكان من بينهم ذلك الرجل الذي أخذت الأمواج تتلاعب به حتى ألقت به على شاطئ جزيرة مهجورة ومجهولة تمامًا، بمجرد أن أفاق الرجل من حالة الإعياء التي أصابته بسبب طول فترة سباحته في الماء، نظر إلى ما حوله وأيقن أنه وحيدًا على جزيرة غريبة ومهجورة لا يسكنها أحد، وقد اشتد الظلام، أخذ يطلب المعونة والمساعدة من الله -عز وجل- لينقذه من مصيره المجهول الذي أحاط به من كل الجهات. مرت على الرجل عدة أيام عاش بها وحيدًا في الجزيرة يأخذ قوتة من ثمار

الأشجار ويشرب من جداول المياه، وينام في كوخ صغير صنعه من بعض أغصان الأشجار القوية ليحتمي فيه من برد وظلام الليل.

وذات يوم أشعل الرجل النيران على بعض أعواد الخشب المتقدة لينضج عليها بعض من طعامه، وقد أخذ يتجول قليلًا بالقرب من الكوخ منتظرًا إتمام الطعام، ولكنه بمجرد عودته فوجئ أن النار قد التهمت الكوخ بالكامل بكل ما فيه.

أخذ يصرخ ويصيح ويشكي سوء حاله قائلًا: (لماذا يا رب؟ حتى كوخي احترق وأنا غريب في هذا المكان، لماذا كل هذه المصائب تأتي علي دائمًا؟) وأخذ يبكي وينوح حتى غلبه النعاس وهو جائع، وفي الصباح كانت المفاجأة فى انتظاره.. حيث إنه وجد سفينة عملاقة تقترب من الجزيرة وينزل منها قارب إنقاذ صغير، هرع الرجل إلى القارب وبمجرد أن صعد على متن السفينة أخذ يتساءل كيف وجدوا مكانه وهو وحيدٌ على هذه الجزيرة المهجورة، فأجابه الناس على سطح السفينة أنهم قد رأوا دخانًا ليلة أمس فعرفوا أن هناك شخصًا يطلب الإنقاذ، فأسرعوا إلى الجزيرة ليلتقطوه معهم»!

العبرة من القصة:-

الله -سبحانه وتعالى- مدبر الأمور كلها من حيث لا ندري ولا نعلم، مهما ساءت الظروف فلا تخف أبدًا وإياك أن تفقد ثقتك بالله -عز وجل-، حتى عندما يحترق كوخك، اعلم أن الله -عز وجل- يصنع خطة لإنقاذك.. ودائمًا ردد: «لا تفكر فلها مدبر». وهناك مقولة رائعة للفاروق عمر بن الخطاب: «لو عرضت الأقدار على الإنسان، لاختار القدر الذي اختاره الله له»، فيجب على الإنسان ترك أموره على الله، فهو لا يخيب ظن عبدٍ به؛ حيث إن القناعة والرضا بما قسمه الله لنا يجعلان الإنسان سعيدًا.

يُحكى أنه كان هناك ملكٌ يعيش في مملكة عظيمة أراد أن يكافئ أحد المواطنين فأحضره إلى قصره وقال له إنه سوف يعطيه جميع الأراضي التي سوف يقطعها سيرًا على أقدامه ملكًا له إلى الأبد دون دفع أي نقود، فرح الرجل وبدأ مسرعًا فى السير فى جنون محاولًا قطع أكبر كمية ممكنة من مساحة الأراضي حتى يمتكلها جميعها، وبلغ مسافة كبيرة جدًا وتوقف مفكرًا أن يعود للملك لينال جائزته، ولكن الطمع تمكن منه فقرر مواصلة السير حتى يحصل على المزيد والمزيد، وهكذا استمر الرجل فى السير غير مكتفٍ بما يتوصل إليه، مهما بلغ من مساحات شاسعة، سار فى

طريقه حتى ضل الطريق وضاع في الحياة، ضاع دون أن يمتلك أي شيء؛ وذلك لأنه لا يمتلك الشيء الذي به يملك الدنيا وما فيها وهي القناعة؛ ولذلك خسر كل شيء لأنه لم يعرف الاكتفاء والرضا؛ فيجب على الإنسان الرضا في الحياة حتى لا يشعر بثقل هذه الحياة؛ ولأن الدنيا هي دار بلاء فيجب علينا الصبر والتحمل، ولكي ننجح بها يجب ألا نضيع وقتًا، لأن كل دقيقة تمر علينا تحسب من عمرنا، يجب أن نستغل كل ثانية في حياتنا ويجب أيضًا نترك أثرًا لنا قبل الرحيل منها. ويجب أن يكون هذا الأثر طيبًا حتى يتداول في سيرتنا بعد موت الإنسان؛ فليس جمال الشخص يتلخص في مظهره بل الجمال في روح جميلة تعطي من حولها طمأنينة وحبًا في الحياة؛ ولذلك يجب أن نعطي أنفسنا فرصة لكي نفهم الحياة بشكل صحيح.

أنا أعرف أن أسوأ السنين التي مرت علينا في حياتنا هي السنين التي نعيشها الآن؛ فقد رأينا فيها من ذهب ولم يعد، ورأينا من كان بجانبنا في أسوأ اللحظات، ورأينا من تخلى عنا في أصعب الأوقات، ورأينا من كان يقول إنه صديق وحبيب وقد ذهب، ورأينا من هو كان في يوم عدوًا كيف أصبح لنا صديقًا وبشدة، حقًا لقد رأينا أنفسنا في صفحة يطليها السواد والكذب والنفاق؛ فهي اللحظة الأولى في حياتنا التي ننظر فيها إلى أنفسنا في المرآة.

«كنت أحارب على البقاء في هذا العالم، لكني لستُ قادرًا على التحمل أكثر من ذلك؛ فليذهب هذا العالم إلى الجحيم».

***



الناشر:

الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

رقم الهاتف:

01066476589

فيسبوك:

/https://www.facebook.com/Wriiiter

المدير العام:

حسن محمد حسن